منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

# حب في خريف مائل

رواية
صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

نور الدين بوخالفة

كتبها عنه

سمير قسيمي

صفحة كتب

الرجاء شراء الكتاب من المكتبات

دعما للكاتب ولكي لا تضيع مجهوداته سدى

مع تحيات فريق صفحة كتب

www.facebook.com/the.Boooks

# حب في خريف مائل

facebook.com/the.Boooks

طبع في لبنان

facebook.com/the.Boooks

# حب في خريف مائل

## رواية

نور الدين بوخالفة

كتبها عنه

سمير قسيمي

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

facebook.com/the.Boooks

**الطبعة الأولى**

**1435 هـ - 2014 م**

**ردمك 978-614-02-1136-0**

**جميع الحقوق محفوظة**

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
هاتف الرياض: 966509337722+
هاتف بيروت: 9613223227+
editions.difaf@gmail.com

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

**يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيَّة وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيَّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.**

**إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين**

*facebook.com/the.Boooks*

# شيء يشبه الإهداء

شرعت في كتابة هذه الرواية نهاية عام 2011، تزامنا مع كتابتي لآخر فصول روايتي "الحالم"، ولكنني سرعان ما توقفت عن الخوض فيها كما كنت أفعل. لقد أدركت وأنا في بدايتها أنني أخوض في عوالم هي من التناقض ما يستحيل معها أن يكتبها شخص يستحلي أن يكون وأن يصفه الناس بالرجل المتخلق. هكذا نزلت إلى أكثر الأماكن ظلمة في نفسي، حتى بلغت ما تعارف الناس على أن يصفوه بالهاوية.

لهذا أجد أنه من العدل إهداء هذا العمل إلى كل من تعرفت بهم في الفترة الواقعة بين سنتي 2012 و2014، رجالا ونساء، ممن سمحوا لي بالاقتراب من عوالمهم السحيقة من أجل هذه القصة.. إلى كل هؤلاء بصدقهم وكذبهم، بطهرهم وعهرهم أيضا، أرفع هذا الإهداء.

وإليهم أيضا أقدم أصدق اعتذاراتي.... لا لأنني أخذت من وقتهم ومشاعرهم وحياتهم ما أخذت، بل لأنني لم أستطع منحهم ما لم يكن ملكي قطّ...



facebook.com/the.Boooks

*facebook.com/the.Boooks*

لا يمكـن للروايـة إلا أن تكـون واقعيـة. يوميـاتي تبرهن أنه لا وجود للحدود في الواقعية، وأنه لا يمكـن اسـتبعاد أي شـيء مـن الواقـع ولا حتـى الأحـلام والأكاذيـب، ولا حتـى ذلـك الـوهم الحيوي الذي أوحى إليّ ذات يوم بالخجل من أنني عشت..

ألبرتو مورافيا



facebook.com/the.Boooks

*facebook.com/the.Boooks*

في ليلة عيد ميلادي الخامس والثمانين، استفقت مذعورا من فكرة أن أحدهم يحدق فيّ وأنا نائم. فتحت عينيّ فوجدتني ألهث بوجه مبلل وشفتين جافتين بطعم الليمون البري.

بدا الأمر من أول وهلة على أنه حلم سيّء تشاركت في كتابته عادات أكثر سوءا، اكتسبتها على مدار عقود من اللامبالاة بجسد شاخ قبل أوانه، لم أعتقد أبدا أنه يليق بي ليكون جسدي. ربما كانت تلك طريقتي للانتقام من الطبيعة التي وهبتني شكلا لم يرضني في شبابي ليرضني الآن وأنا في مثل هذا العمر.

مجرد استيقاظي على صوت أنفاسي المتقطّعة، شكل خيبة أمل جديدة أضفتها إلى قائمة بدأت ولا يبدو أنها راغبة في الانتهاء. لقد خاب ظني مرة أخرى في الموت، والذي خلت لأكثر من عشرين سنة أنه سيكون سعيدا بضمي، لا لشيء إلا لكون بقائي في هذه الأرض لم يعد يعني لي أكثر من بقائي فيها. ثم إن الحياة التي خضتها بعد الخامسة والستين لم تضف إليّ وإلى الحياة إلا أصفارا إلى اليسار.

ربما كانت الخامسة فجرا حين فتحت عينيّ على أول يوم لي في عامي الخامس والثمانين، والذي لم يكن بالنسبة



facebook.com/the.Boooks

لي يوما جديدا بقدر ما كان يوما إضافيا بلا جدوى. أحيانا ترغب المشيئة في العبث بأن تكتب حواش كثيرة على صفحات فارغة، أو تضيف شروحا سخيفة لنصوص ممعنة في السخافة.

سمعت وقع أقدام لراجلين اعتادوا الخروج في مثل هذا الوقت، بعضهم ليبدأ يوما جديدا من عمر يقضونه في التذلل للحياة حتى تبدأ، وحين تفعل يجدونها انقضت في الوقت ذاته، لتحاصرهم في النهاية فكرة الموت وضرورة التحضير لحياة أخرى بعده. هكذا ينضمون إلى البعض الآخر من الراجلين الخارجين في مثل هذه الساعة فجرا للصلاة، يحذوهم الأمل في حياة أخرى يرجونها أفضل.

أتساءل إن كانت الحياة لتكون أكثر متعة لو ألغينا من قواميسنا فكرة الانتظار، فلطالما اقترنت هذه بالأمل. ماذا كان ليحدث لو ولد الإنسان من غير أن ينتظر الغد، من غير أن يتساءل عنه. يعيش يومه فحسب، وحين ينقضي يمسك بزمام غده ليعيشه من دون أن يتساءل عن أمسه الذي مضى؟.. ماذا كان ليحدث لو فقط توقف عن يقينه الكاذب في أن الغد لا بدّ آت، وأن عليه انتظاره ليعرف ما سيكون؟..

أدرك أن اختلافنا كبشر واعين بحقيقة ذواتنا أهم ما يميزنا عن كائنات هذه الأرض، إلا أن هذا الوعي عوض أن يتبحّر في دواخلنا يحاول التعلق بمكان تواجدنا رغم أنه منفصل عنا،



facebook.com/the.Boooks

لا نملكه ولا يملكنا، وبتعلقه به بدأت رحلتنا السخيفة في الحياة، رحلة بوصلتها الوعي اللامجدي بالزمن الذي لم يكن يوما لصالحنا. هذا الزمن الذي جعلنا كائنات تؤمن بالغد، كائنات عوض أن تستمتع بيومها، تهدره في انتظار ما سيحمله إليها الغد، وحين يأتي تهدره في التفكير في اليوم الموالي، وهي في كل ذلك لا تعيش حياتها بقدر ما تؤجلها لوقت لاحق لا حياة فيه.. في النهاية، لا نخوض رحلة في الحياة كما نعتقد، بل مجرد سفر نحو تلك التي نرجوها، نبدأها برغبة في معرفة كيف ستكون، لننهيها دوما بالسؤال نفسه عن حياة أخرى بعد الموت من دون يقين عن وجودها فعلا.

ومن دون سبب واضح حثني وقع أقدام الراجلين في الخارج على ارتداء ملابسي، وعلى محاولة أن أكون لبقا مع الحياة التي أهدتني يوما جديدا. ادعيت الامتنان لها وخرجت على ساقين لا يعلم أحد كيف تمكنتا كل تلك العقود من حمل جسد ضخم، مترهّل كجسدي، فأنا التعريف الأكثر دقة للقبح، وحسبي أن أقول ذلك من دون أي تفصيل آخر، فأحيانا لا نجد كلمات لنصف أنفسنا، بالرغم من وجودها دوما حين نرغب في وصف الآخرين. ربما يكون امتناعي عن وصف نفسي طريقة لبقة للاحتجاج على الطبيعة التي أوجدتني على هيئتي، أو هي طريقة لأهيئ الظروف لما سأرويه لاحقا، لاعتقادي أنني مجرد ناقل لقصة لست أهم من فيها. ومع ذلك



facebook.com/the.Boooks

تبدو حقيقة ذكري لبعض الوقائع في حياتي مهمة في سبيل رؤية الصورة الكاملة لكل ما سأرويه.

ربما كانت التاسعة صباحا، حين قررت التوقف عن السير بعد أن خرجت من شقتي، فقد دأبت على المشي الصباحي منذ عشر سنوات تنفيذا لأوامر طبيب يدّعي صداقتي رغم أنه يثمّنها في نهاية كل زيارة له بمقابل. أحسب أنني أغلى صديق امتلكه لحد اليوم، فقد انقضت أربعون سنة منذ أول مرة دخلت فيها عيادته بسبب التواء كاحل، وحسبي أن أعرف ألا أحدا من أقراني -ممن كانوا زبائن لديه- استمرت علاقتهم به أكثر مني.

كان صديقي "بمقابل" يذكّرني في كل زيارة بضرورة أن أفعل شيئا إزاء صحتي. وكنت في كل مرة أذكّره بدوري أنني أتعمّد ألا أفعل شيئا رغبة في إغواء الموت، لكنه كما يبدو عصيّ على الإغواء، حتى أنني ورغم استهتاري الصحيّ، لم يلازمني أي مرض مزمن مما يصيب من كانوا في مثل عمري أو من كانوا في مثل لياقتي. كان طبيبي يصف حالتي في البداية بـ "الأمر غير المعقول"، ومع مرور الزمن سماها "المعجزة الطبية"، وفي آخر عشر سنوات سماها "رحمة الله". أما أنا فلم أعتبرها إلا حلقة جديدة من سادية الطبيعة، وحبها المزمن للعبث.



facebook.com/the.Boooks

تخيّرت مكانا في حديقة خميستي وجلست.

كان باعة الكتب القديمة بشرههم المعتاد وطيبتهم المصطنعة وادعائهم الكاذب بمعرفتهم بجميع ما يبيعون، في مكانهم كالعادة. وكالمعتاد أيضا، تراءت لي أكوام الكتب التي لم يعد يقرؤها أحد. أخذت الحياة في هذا الوطن منحى آخر، بعيداً كل البعد عن العقل. انسلخت الأرواح من أجسادها، وصرنا جثثا تمشي يملؤها الخواء. لا شيء يبدو قادرا أن يملأ الفراغ الذي في كل يوم يحتل مساحات جديدة فينا، لا شيء ولا أحد.. حتى الله.

في العادة، لا أحب الأماكن المفعمة بالحركة. ولكنني بسبب التعب أو ربما بسبب ساقيّ المنتفختين، وجدت أن جلوسي هناك -إلى حين- فكرة صائبة يمكن احتمالها لربع ساعة. وكان الأمر ليكون كما اعتزمت لو لم يجلس بجواري عجوز في مثل سنيّ. أو هكذا خمنت أن يكون عمره، لأدرك لاحقا أنه يصغرني بسنوات.

كان أنيقا للغاية، نحيلا بوجه أبيض محمرّ وأسنان مفرطة في البياض. لم تكن اصطناعية، فأنا أكثر الناس قدرة على تبين هذا التفصيل لامتهاني جراحة الأسنان لأزيد من ثلاثين سنة. ولأنني كذلك لم استرح لوجود هذا العجوز بجواري، فالمثل السائد في كون الرجل المعتني بأسنانه وحذائه رجل يمكن الاطمئنان له، مجرد كذبة لا غير. وكنت لأقول عنه العكس بسبب بقائه مبتسما كل الوقت من دون سبب واضح.



facebook.com/the.Boooks

كان يتطلع إلى المارين بجوارنا بعينين مشعتين، تحتفظان ببريق لا يصلح أن يكون في حدقتيّ شخص في مثل عمره، وإن حدث فليس بمثل ذلك الإصرار الذي كان يبديه في محاولة رصد أي حركة في الجوار. لم يكن لديّ شك في كونه شيخ متصاب، لم يجلس هنا إلا لتصيّد بعض العاهرات الرخيصات ممن لا يملكن القدرة ولا الجمال في جلب زبائن أفضل. لكنني حين تأملته أكثر، سرعان ما أدركت أن نظراته خالية من الشهوة. كانت نظرات تفيض فضولا كأنه رجل خرج من السجن للتو بعد أن قضى فيه عمرا. وعلى حين غرة بادرني بالسؤال:

- هل أجد عندك سجائر؟

هززت رأسي بالنفي وحاولت القيام.

أضاف:

- أوجدته سؤالا غير لائق؟

لم أجبه، وأشرت إلى الناحية الأخرى من الحديقة، حيث يوجد كشك لبيع السجائر.

ضحك وقام بدوره يحاول مساعدتي على النهوض. فالجسد الذي تحمله ساقاي يجعلني أستغرق وقتا غير معلوم في الغالب للقيام كلما جلست.

شكرته كما يقتضي الحال، محاولا أن أبتسم لعلمي أنه سلوك حضاري مجبر عليه قد يعني له نوعا من الامتنان من قبلي، رغم أنه لا يعني لي شيئا في الحقيقة.



facebook.com/the.Boooks

عاد العجوز إلى الحديث:

- يمكنني أن اشتري لك معي سجائر لو رغبت.

رسمت له ابتسامة أخرى على وجهي، وأنا موقن أنه يملك من العقل ما يجعله يفهم منها عدم اهتمامي باقتراحه الساذج، ولكنه أصرّ مضيفا:

- انا أحب سجائر الروتمانس، هل ترغب في نفس النوع أم تفضل نوعا آخر؟.

لم أجبه، وفضلت أن أصمت، وظني أنه سيفهم أنني لا أرغب في محادثته وفي سجائره.

فكرت في أن العجوز إما طيب جدا وإما بليد للغاية، وفي كلتا الحالتين سيعني له صمتي ولامبالاتي به أنني غير مهتم باقتراحه. وقبل أن أبدأ أولى خطواتي نحو شقتي، هرول في اتجاه الكشك. ثم لم يلبث أن عاد وفي يده علبة ومدها إليّ:

- لم تخبرني عن نوعك المفضل، فاشتريت علبتين من نفس النوع، آمل أنها ستروقك.

سألته بالفرنسية، وكانت تلك عادتي كلما حدثني رجل غريب. أدرك أنها تبدو عادة قد يفهم منها أنني متبجح، ولكنها طريقتي في وضع ما يجب وضعه من شروط لمحادثتي. أقلها أن يملك محدثي حدا أدنى من التعليم والثقافة.



facebook.com/the.Boooks

- أشكرك ولكن يبدو لي أنك قد فقدت البصر وربما القليل من العقل لتفكر أنه يمكنني التدخين، ألا يمكنك وأنت تنظر إلى وضعي أن تخمن في استحالة ذلك؟

أجاب:

- عن أي وضع تتحدث، باستثناء السن الذي قد نتشارك فيه، لا يبدو لي أنك تعاني من أي خطب.

ضحكت، فعلى الرغم من مظهر هذا العجوز، فلا شك أنه أحمق. يسأل شخصا في الخامسة والثمانين، قصيرا، مفرطا في البدانة عما يمنعه من التدخين. إلا أنه وهو يقول ذلك، بدت لي الفكرة رائعة، كيف يعقل أنني لم أفكر في الأمر من قبل.

قلت: "لا خطب على الإطلاق". وانفجرت ضحكا من حمق الرجل الذي أهداني طريقة مبتكرة لإغواء الموت. أضفت: "لنجلس هنا". وأشرت إلى مقعد بعيد عن باعة الكتب القديمة وطاولاتهم.

قال من غير أن يبدي اهتماما بسبب ضحكي:

- قد لا أعرفك جيدا، ولكن يبدو لي أنك رجل منطو.

لم يقل ذلك بعدائية مثلما تفترضه طبيعة هذه الجملة، بل قالها وكأنه يخلص إلى نتيجة منطقية عبر أسباب لا يبدو أن أحدا سواه كان قادرا على إدراكها. في الحقيقة نطق بذلك من



facebook.com/the.Boooks

غير أن يبدو ما قاله حكما من أي نوع. مجرد ملاحظة عابرة أملاها عليه الحدس.

وإن كان صادقا في حكمه إلا أنني ربما رغبة في الاحتجاج (كأي شخص طبيعي) قلت:

- هل لأنني استغربت من أن تهديني علبة سجائر؟. الأمر بديهي لا علاقة له بالانطواء، بل بعدم وجود منطق في أن تفترض أن قزما هرما يزن قنطارا ونصف يمكنه التدخين من دون أن يُخشى عليه الموت. مع احترامي لك، هذا افتراض أحمق.
- وعدائي أيضا!!.. ولكن قل لي هل تخشى التدخين لأنك تخاف الموت؟

فجأة شعرت بالارتخاء. ذلك أن طريقته في تحويل الحديث، جعلتني أدرك أنني لست بصدد رجل أحمق كما تصورت، بل رجل يملك القدرة على إدارة محاورة قد تروق لي.

قلت:

- بالعكس، حتى إنك هديتني إلى فكرة لم تخطر ببالي لأعجل من أجلي. هذه عشرون سنة أقضيها في انتظار الموت، ولكنه كما يبدو منشغل بأناس تشغلهم الحياة.
- لو كان الأمر كما تقول لفكرت في الانتحار. لا أظن أن رجلا مثلك تعوزه الحيلة في إيجاد طريقة في الموت بغير ألم.



facebook.com/the.Boooks

هززت رأسي موافقا، وقد وجدتها فرصة للتبجح ولإخباره أنني كنت جراح أسنان، ثم عرضت عليه قائمة طويلة من المخدرات والسموم التي تحقق رغبة الإنسان في ميتة رحيمة. وكنت كلما ذكرت له اسم مخدر أو سم إلا وأخذ يحدثني بنحو مفصل عنه، بدقة رجل متخصص في الطب.

سألته:

- هل عملت في مجال الطب أو الصيدلة؟
- تمنيت ذلك ولكنني لم أنل من التعليم ما يسمح لي بذلك، ولكن قل لي: ما دمت ترغب بشدة في الموت، لمَ لم تجد في الانتحار طريقة مناسبة للتخلص من الحياة؟

أجبته مبتسما:

- الله.

ضحك، ثم قال وهو يشعل سيجارة:

- حجّة كنت لأقبلها من سواك. أما أنت فلا أعتقد أنك تفكر في الله بتلك الطريقة. لا أدري ولكنني أثق دائما بحدسي، وهو يهمس لي الآن أنك تملك سببا آخر غير الخوف من الله.

قال ذلك وأشعل سيجارة أخرى وسلّمنيها. هززت رأسي مبديا عدم رغبتي في التدخين، فألقاها من غير إلحاح.



facebook.com/the.Boooks

قلت:

- صحيح، لم يخطئ حدسك هذه المرة. لنقل إنني رجل يؤمن بالله بطريقته، ومهما بدت لك غريبة، فهي لا تجعل منه سلطة تستمتع بالعقاب. فمثلا لا أومن بالجحيم كمكان يوضع فيه العصاة، بل كفكرة خيالية رادعة أوجدها الله فقط للإخافة. إن مجرد إيماني به كسلطة تفوقني على الأقل إدراكا، تجعل من فكرة معاقبته لأشخاص قرر لهم حياتهم بأزمنتها وأماكنها وظروفها فكرة غير معقولة على الإطلاق، هل يمكن أن تلوم حجرا تلقي به على أحدهم، فتعاقبه بالسحق لاحقا بتهمة أنه آذى سواك؟. أعرف انك ستقول لي أن الحجر لا يفكر فيختار لنفسه وجهة أخرى أو يستمر في وجهتك، أجيبك أن العقل الذي نملكه، لا يقرر في الاحتمالات ولكن يخوضها فحسب. الإيمان بالقدر يفترض الإيمان بمعرفة الله لكل تلك الاحتمالات مسبقا، ومن ثمة معرفته بكل المسارات المحتملة التي لن تكون في النهاية خيارات أمام الإنسان، بقدر ما هي ما رسمه (المدرك الأكبر) قبل قيام تلك الاحتمالات. يعني مهما اخترت، فلن تختار مسارا لم يقدّر لك من قبل. هذا إذا آمنت فعلا بالقضاء والقدر. كل ذلك لأقول لك إنني لا أومن



facebook.com/the.Boooks

بأن الله سيعاقبني لو انتحرت، لأنني لا أومن بالجحيم، ولست على يقين بوجود الجنة وحياة أخرى بعد حياتنا. لا أومن بوجودهما المكاني الملموس، على الرغم من إيماني بوجودهما كفكرة خيالية أوجدها الله للترهيب أو الترغيب. إنها فكرة رائعة تخلق نوعا من التوازن بين الخير والشر في هذه الحياة.

قال وقد بدا عليه الاهتمام، رغم أن ملامح وجهه جعلتني أتصور أن ما طرحته من أفكار لم يضف إليه جديدا. لقد علمتني التجربة أن الخوض في مسألة العقائد من شأنه أن يخلق نوعا من الإرباك أو الاهتمام المفضي لردة فعل ما، أما اهتمامه هو فلم يكن أكثر من إصغاء بلا ردة فعل:

- لم تجبني لحد الآن.
- بل أجبتك ولكن لا يبدو أنك لا تحسن الإصغاء.

قلت ذلك وقد تملّكني شعور بالغبطة، تماما كالذي ينتاب عالم رياضيات وهو يبرهن على نظرية لم يدركها سواه. أعتقد أن في لحظات كهذه تسمح المشيئة للإنسان بالشعور بفردانيته، حتى أنها وفي حالات نادرة تلقي عليه بشيء ولو ضئيل من نورها لتتمظهر فيه، رغبة في إيهامه أنه والله سواء.. يعلم ما لا يُعلم.

لم تدم غبطتي طويلا حين علقّ:



facebook.com/the.Boooks

- صدقت، الآن فهمت، أنت لا تعتبر الانتحار خيارا، لأنك لو انتحرت فلن تكون إلا منفذا لأمر قد تقرر سابقا، واحد من الاحتمالات المقررة مسبقا. كما أنه سيكون منافيا لتصورك لله، فليس على موزع الورق أن يصبح قبل انتهاء اللعبة طرفا فيها، هو من يعلن بداية اللعبة وهو من يقرر لاحقا بسبب ورقك إن تستمر أو تتوقف عن اللعب. الانتحار يدفع بالموزع أن يتدخل ويصبح لاعبا.

ضحكت من طريقته في قول ما أردت، ولكنه في النهاية أدرك مغزى قناعتي، لذلك سألته:

- أعترف أن الحديث معك ممتع، إلا أنني مضطر للعودة إلى منزلي، ولكن قل لي ما الذي جعلك تعتقد أنني منطو؟
- انا متأكد أنك كذلك، فقد كنت مثلك في وقت سابق، حتى حدثت معي أمور جعلتني أدركت ما ضيعت من متع في الحياة.

سألته: أمور مثل ماذا؟

- قد يحتاج الأمر وقتا، وكما أرى فأنت مستعجل للقاء زوجتك.
- رحمها الله.. أنا أعيش بمفردي منذ عشرين سنة.



facebook.com/the.Boooks

وعلى عكس ما تصورت لم يبد أي أسف حين أخبرته بوفاة زوجتي، ولكنه علق:

- بمفردك ولعشرين سنة؟.. يبدو أنه كان حبا عظيما جعلك ترضى بمثل هذه الوحدة كل هذا القدر من الوقت.
- حب؟.. لا يا صديقي لم أحبها يوما، ولا أعتقد أنني أحببت من قبل. في النهاية لم أومن بالحب وإن كدت أن أفعل ذات مرة.
- تبدو قصة مثيرة.
- ليست مثيرة إلى هذا الحد. لا أخفي عنك أنني كنت أحب الجنس، ثم أي رجل لا يحبه، فالمسألة غريزية ليس أكثر. ولأنني كنت كذلك فقد شعرت وأنا في الأربعين أن زوجتي بدأت تمل من الجنس اليومي، ومع عدم قدرتها على ردعي، بدأت تصبح لا مكترثة بي حتى في ذروة ممارستنا. أحيانا تجعلني أشعر أنني أضاجع جثة بلا مشاعر ولا رغبة. وأحيانا يتهيأ لي وأنا فوقها–وهي الوضعية الأكثر قبولا بالنسبة لها– أنني أضاجع عاهرة لم تعد تهتم إلا باحتساب الوقت لأقذف وينتهي الأمر. لا أخفيك أنه كان شعورا مقززا حتى بالنسبة لرجل مثلي لا يهتم بتفاصيل الجنس عادة، وبضرورة أن تجمعه بشريكته مشاعر من نوع



facebook.com/the.Boooks

خاص. هكذا بدأت مغامرات منهكة للبحث عن شريكة فراش. كانت منهكة على اعتبار أنني لم أكن مرشحا مثاليا بسبب هيأتي، لكنّ بحثي -ولحسن الحظ- كان ينتهي دوما عند جسد متعطش للجنس من غير الاهتمام بشكل أو هيأة الشريك. وكنت مرتاحا لهذا الوضع لأنه لم يمثل لي نوعا من الخيانة لزوجتي.

لا أدري إن كنت توافقني، فالخيانة ليست في فعل المضاجعة بحد ذاته، بل تتعلق بما يسبق ويلحق هذا الفعل، مجرد الشعور بأي شيء نحو شريكك في الفراش يحول الأمر إلى خيانة. أما إذا اختفت المشاعر، فإن الأمر يصبح شبيها بنزهة أحدهم في شارع لا يسكن فيه.

وإذ ذاك، هز العجوز رأسه موافقا.

- إلا أن الأمر لم يستمر على هذا النحو، فقد ظهرت في حياتي شابة تمكنت بطريقتها من إيهامي بالحبّ. حتى إنها لم تكن تفوت فرصة لتحدثني عن هيامها وحبها لي. أعترف أنني صدقتها وبدأت أفكر فيها بشكل مختلف، بدليل أنني بقيت متشوقا للقائها سنة كاملة، قضتها في التمنّع وإيجاد أسباب لتبرير تخلفها عن لقائي كل ذلك القدر من الوقت. كان يفصلنا



facebook.com/the.Boooks

المئات من الكيلومترات وقدر هائل من الهراء الاجتماعي جعل لقاءنا مستحيلا مع استثناءات قليلة كنت أعتمد عليها لتكون مدخلي إليها.

يمكنني القول الآن أنها تمكنت مني حينها. كان غسيل مخ كامل يعتمد في شق منه على الكلام الدافئ والوعود الوردية وأحلام اليقظة الجنسية، وفي شقه الآخر على قصص المأساة التي أقنعتني بها. في الحقيقة، لا يمكنني لحد الآن رغم أن عقودا مرت على كل ذلك أن أجزم بصدق أو كذب ما أخبرتني به عنها، لعلمي أن الحيلة الكاملة ليست إيهاما مطلقا، بل حقيقة كاملة مع بعض الإيهام.

ربما أحببت في ذلك الوقت تصديق فكرة أن الحب موجود، وأنا وحدي من عمي عنه، حتى جاء ذلك اليوم الذي فاجأتني بخبر قدومها.

حتى ذلك اليوم لم نكن قد التقينا إلا مرة واحدة سمحت لي فيها بالتعرف على شكلها. لم تكن من النوع الخارق ولكنها امتلكت صدرا مثاليا ونظرات تقطر شبقا، لتستمر علاقتنا لاحقا على الهاتف.

جاءت في ذلك اليوم باكرا. أخبرتني بعدم قدرتها على المبيت، وأن كل ما تملكه ساعتين لا غير، فقبلت الأمر رغما عني.

كنت في البداية متشوقا لمضاجعتها، ولكنني مع ذلك كنت أشعر بتأنيب الضمير. مشاعري نحوها جعلت الأمر يرقى من



facebook.com/the.Boooks

مضاجعة أتخلص من ذكراها بمجرد الاستحمام، إلى خيانة لزوجتي. لذلك أحببت أن أعرف إن كان الأمر يستحق، فقد كان السؤال الأكثر إلحاحا عليّ مدى حقيقة حبها لي. استحوذ السؤال على عقلي، حتى رجّح لدي فكرة أخرى، صورتها لي كامرأة يمكنها تخليصي من مغامراتي الجنسية وبحثي المضني عن شريكة فراش. فكرت كالغبي أن بمقدور تلك الشابة أن تصبح زوجتي شريطة أن أتأكد من مشاعرها نحوي فحسب.

لم أكن أملك فكرة واضحة عن الحب، ولا أدعي أنني أملك فكرة عنه اليوم. لكنني أعرف بنحو لا لبس فيه الفرق بينه وبين الجنس. هكذا قضيت الليلة قبلها مستيقظا، رغبة في إضعاف جسدي. وقبل أن تصل بنصف ساعة، تعمدت دخول الحمام وتخلصت من متعتي ثلاث مرات حتى أفرغت شحنة شهوتي. أردتها أن تجدني في أول لقاء جسدي بيننا باردا كرجل عنين. كانت الفكرة واضحة بالنسبة لي: لو كان الحب ما حملها إليّ فإنها قد تستاء قليلا من برودي ولكنها ستحاول جهدها في استثارتي مهما أخذ الأمر من وقت، أما إذا لم يحملها غير الشهوة فستشعر بالضيق وترغب في الانصراف بأي ثمن.. أعتقد أنك تعرف النتيجة..

انفجر العجوز ضحكا حتى بالكاد تمكن من النطق:

- يا إلهي كم تشبهني يا رجل..



facebook.com/the.Boooks

*facebook.com/the.Boooks*

# القسم الأول

وفيه:

قصة الرجل الذي يشبه اليويو، وسببان وجيهان لخروج الحصان من إسطبله، وأخيرا قصة حبّ من أول قرصة..



facebook.com/the.Boooks

*facebook.com/the.Boooks*

# -1-

قلت للرجل العجوز:

- أتجدنا حقا متشابهين؟

رد من غير تفكير:

- بالتأكيد، مع اشتناء أنك تملك فكرة غير صادقة عن الحب. إنك تنفي واقعا موجودا منذ الأزل، فلطالما ارتبط الحب بالإنسان، صنع حروبا ومنع مثلها. التاريخ مملوء بالقصص والأدلة على وجود الحب.
- ربما، ولكنه لم يكن موجودا في حياتي، ربما لأنني لم أحتج إليه ولم يكن له ضرورة فيها. لقد تزوجت وأنجبت وضاجعت مئات النساء بغير حب. وكما ترى لم يبق في العمر مثل الذي مضى ومستمر في الحياة بلا حب أيضا.

صمت قليلا وكأنه يبحث عن تعليق مناسب، إلا أنه في النهاية لم يقل شيئا.

للحظة شعرت أنني تفوهت بكلام غير مناسب، ولكنني حين حملقت فيه، بدا لي أنه يفكر في مسألة أخرى غير التي



facebook.com/the.Boooks

طرحتها. قلت رغبة في تغيير مجرى الحديث:

- دعنا من حديث المراهقين هذا، ولتقبل دعوتي على فنجان قهوة، وبعدها يذهب كل واحد إلى سبيله.

قال وكان قد تخلص من شروده:

- ليكن ولكن بعد الغذاء. أنا من يدعوك فلا تحاول التنصل، ثم من يدري ربما قد لا نلتقي بعد اليوم.

قلت: لن يكون سيئا أن نلتقي مرة أخرى، ولكن كما أقول دائما، لا جدوى من التفكير في الغد ما دام لم يأت بعد.

لم نحتج إلا لقطع الطريق لنجد مطعما. قال حين تراءى له: يبدو مناسبا، لنتغذى هنا.

جلسنا على طاولة في زاوية المطعم وبعد أن جلب النادل ما طلبنا، بادرني بالحديث:

- لم يكن لطيفا أن تصف الكلام عن الحب بحديث مراهقين.

ضحكت.

- ولم لا؟ لطالما ارتبط بهم، ثم من يمنعني من وصفه كذلك.

- لا أحد ولا شيء يمنعك غير الحقيقة، أما الحب فلم يرتبط أبدا بالمراهقين، حتى أنت اعترفت بأنك كدت تقع في الحب ذات مرة، رغم كفرك به وقتها.



facebook.com/the.Boooks

قلت مندفعا:

- كان وهما، ولا بأس به، فلم أدع أنني رجل خارق عصي عن الوهم.
- لم تقل ذلك، ولكنك تنفي وجوده في حياتك، رغم أنك لم تنته من حياتك بعد.

أضاف ساخرا:

- لم تنته بدليل أنك تجلس هنا وتستعد للغداء معي، وأنا رجل لو سألوك عنه قبل اليوم لنفيت وجوده. لم أكن في ماضيك ولكنني في حاضرك الآن. أقصد أن نفيك لوجودي بالأمس لا يمنحك الحق في نفيه اليوم. الأمور تتغير. لم تؤمن بالحب لأنه كان غائبا من حياتك، لكنك تجهل هل ستستقر غدا على إيمانك هذا.

قلت وقد تملكني الضحك:

- تقصد أنني وفي مثل هذا العمر قد أقع في الحب؟ يا رجل، أنت تحدث شخصا عاصر قرنين، أصغر أحفاده يملك ولدا.
- ومع هذا ما زلت تتنفس. أعرف أنها فكرة تبدو غريبة ولكن سايرني لبعض الوقت. لقد كنت مثلك، لهذا أخبرتك أنك تشبهني، إلا أن أجمل ما في الحياة أنها غير متوقعة تماما، لذلك تحدث دوما أمور قد تقلب



facebook.com/the.Boooks

عقائدنا فما بالك باعتقادات افترضنا صحتها بسبب ما عايشناه.

كنت مثلك، حتى ذلك اليوم الذي استيقظت فيه على صوت المنبه وآلام ركبتيّ.

شعرت يومها بتشنج طفيف بسبب البرد جمّد ربلة ساقي الأيمن ولكن لحسن الحظ اختفى بمجرد أن قرصت فخذي، فسنوات من النوم الرديء علّمتني كيف أتعامل مع ما قد يخلفه رقاد غير مريح بوضعية لا تصلح في العادة إلا للجلوس.

وكعادتي كلما استيقظت، سحبت سيجارة وأشعلتها بيدين ترتعشان لا بسبب البرد بل لشيء أصابهما قبل سنين.

فكّرت بالطبع في زيارة طبيب لمعرفة سبب الرجفة التي بدأت في يد واحدة وسرعان ما انتقلت إلى الأخرى، ولكني في النهاية حسمت الأمر بداخلي على أنه يتعلق بالسن وبعقود من التدخين والأكل الرديء.

ثمة أشياء كثيرة قد يصاب بها رجل في مثل وضعي. لا أقول أنها لا تحتاج إلى استشارة طبيب ولكن أسبابها واضحة، حتى إن مجرد محاولة علاجها هي في نظري طريقة لتخدير الذات بالكذب عليها بالقول مثلا "حين آخذ الدواء سأشفى". هذا الاستنتاج رغم بساطته يصلح لشخص آخر يملك القدرة على تغيير أوضاعه، أو يملك –على الأقل– الأمل



facebook.com/the.Boooks

في تغييرها. أما أنا وقد طرقت باب الستين قبل أسبوع من ذلك اليوم وبعد أن أدمنت تلك الحياة التي عشتها لأزيد من أربعين عاما، لا يمكنني أن أفكر بهذا المنطق. تكفيني الصراحة مع نفسي لأشعر ببعض السعادة التي قد لا يعيها سواي.

نظرت إلى نفسي فأدركت أنني نمت من دون أن أغير ملابسي. لسبب ما شعرت أمس ذلك اليوم بالتعب، وما كدت أتمدد حتى غططت في النوم.

قلت لنفسي: لا بأس في ذلك، لن أحتاج إلا لتعطير جسدي وغسل وجهي لأكون مستعدا ليوم جديد.

سوّيت ربطة عنقي بعناية وأغلقت أزرار الجاكيت ثم مسحت على سروالي ليحافظ على مظهره المكوي اللائق بسروال بذلة. أما حذائي فلم أحتج إلى تلميعه كما يبدو.

بعد سيجارة أخرى تخلصت من رعشة يديّ التي دأبت على الاختفاء مع أول سيجارة، وكذا من معظم صداع رأسي الصباحي الذي أعرف أنني لن أتخلص منه كاملا إلا بعد تناولي أول فنجان قهوة. وإلى أن يحين ذلك فلا بأس من احتمال بعض الألم..

***



facebook.com/the.Boooks

حين ذكر الألم ابتسمت، لا أدري ما يجعلني أسر كلما زاوج أحدهم بين اللذة والألم من غير تحرّج، فلطالما اعتبرته شعورا طبيعيا لندرته أعطي اسما أقرب ما يكون إلى الشذوذ.

***

تابع العجوز وقد بدا غير سعيد بابتسامتي:

- لا يذهب تفكيرك بعيدا. لست ماسوشيا ولا حتى مهووسا بالتجارب النفسية المفضية إلى اكتشاف الذات. كل ما في الأمر، أن قضاء سنين في هذا البلد ولو بصفة "مقيم مؤقت" أو حتى "سائح دائم" على غراري أو بقيّة مواطنيّ، تدفعك إلى معاقرة الألم يوميا. تكفي الخيبة لتكون ألما مزمنا قد لا يذكر طبعا في شروط التجنس أو الانتماء، ولكنه -مع ذلك- شرط ضروري للانتماء إلى هذا الوطن.

لم تمض نصف ساعة يومها على استيقاظي حتى انطلقت من حظيرة ركنت فيها سيارتي ليلة أمس، ومن دون مبالغة ما زلت منذ أعوام أركنها في نفس الحظيرة، حتى خصص لي أصحابها -رغم أنهم قد يختلفون من سنة إلى أخرى- مكانا لي. أظن أن العادات تمنح مدمنيها حقا لا يمنحه لهم حتى القانون.



facebook.com/the.Boooks

أنسجم أنا وسيارتي بنحو مثير للدهشة، فقد ولدنا في نفس السنة ولم تكد تبلغ الثامنة عشر حتى ركبتها أول مرة. ومنذ رأيتها مركونة في تلك السنة بباحة منزل أحد معارفنا وأنا واقع في حبها. لك أن تقول أنه حب من أول نظرة دافعه الشفقة، فقد أحزنني وقتها كيف أهملها صاحبها.. سيارة بيجو 203، سوداء بمقاعد جلدية بيضاء. علمت لاحقا أن صاحبها ولد مدلل استغنى عنها حين اشترى له والده سيارة أحدث. ولا أدري أي شجاعة امتلكت وقتها لأهرع لمقابلته، ولا أي إيثار نزل على قلبه ليهديها لي بدون مقابل. كل ما قلته: "أهذه سيارتك؟". وكل ما قاله: "إن أعجبتك فخذها".

ومن يومها ونحن معا، ولو شئت الصدق لقلت أنها أقدم صحبتي وأشيائي، رغم أنني لا أحب وصفها بـ "الشيء" ولا حتى أن أقول أنها ملكي، لأن ما جمعنا معا لا يمكن وصفه بالتملك. أحيانا أجد حرجا من الناس حين يقولون لي –من دون أي سوء نية– إنهم سيركبونها معي، فحين أتخيّل ذلك يمتلأ قلبي قرفا. أشعر حينها –وأنا مدرك بغرابة شعوري– أنهم بتعبيرهم ذاك يعتدون عليّ وأنا مجبر على الرضا باعتدائهم. فحين أقول أنني أركبها فأنا أقصد هذا الفعل بالذات، ولا علاقة لجلوسي بداخلها بما أقول. أقصد أن ركوبي لها يحمل لي من المتعة واللذة ما قد تعنيانه في ركوب امرأة، من دون أن أجرح مشاعر النساء الفخورات المستمتعات بوصفهن أحسن



facebook.com/the.Boooks

مركب قد يركب، فالمتعة التي أعنيها لم أجدها شخصيا حتى في تلك اللحظات التي جمعتني -ولو كثيرا- بأنثى.

***

قاطعته معلقا:

- زير نساء، هذا ما اعتقدتك عليه وأنا أراك أول مرة. من يهتم بهندامه وعطره وشعره وهو في عمرك غير زير نساء؟

واصطنعت ضحكة تعبر عن رضاي بنفسي.

***

غير أنه لم يهتم بتعليقي واستمر:

- لن أدعي أن تجاربي الجنسية مملة أو لا تستحوذ على فكري بين الفينة والأخرى، ولكنها لم تكن لتجعلني أغيّر من حياتي كما فعلت سيارتي. ربما لم أجد حتى ذلك الوقت المرأة المناسبة، أو لعل علاقاتي الجنسية التي يمكن أن أقول أنها كثيرة كانت من السرعة والسوء ما جعلني أستغني عنها في النهاية إلا إذا فرضتْ نفسها عليّ. فما لم أقله لك أنني عشت حياتي أعزب، والأعزب المسن عادة ما يشحذ الحب ولو



facebook.com/the.Boooks

بمقابل. لكن ذلك لا يعني أبدا أنني فاحش. سأكون صريحا معك وأقول إن أطول مدة لي في الجماع لم تتعد السبع دقائق باحتساب الزمن المستغرق في المقدمات.

لو كنت في وضع غير وضعي لاستأت للأمر، ولربما استشرت طبيبا، أو كنت سبرت أغوار نفسي ببعض الصراحة لأكتشف حقيقة ميولي الجنسية التي قد تكون غير سوية بتعبير المحافظين. ربما كنت فعلت ذلك ولكنني في النهاية لم أفعل، لإيماني بأن الجنس في حياتي مثل كوب شاي يمكن أن أجد متعة في تناوله ولكنه ليس ضرورة لا يسعني التخلي عنها، على عكس سيارتي البيجو التي وبعد أربعين سنة من المعاشرة، أصبحت كقهوتي الصباحية التي بدونها لا يبدأ أي يوم.

وعلى بعد شارعين من الحظيرة أوقفت سيارتي. كان زبائني الأربعة المعتادين أن أقلهم إلى محطة القطار في انتظاري كدأبهم كل صباح. قطار السادسة إلا ربع لا ينتظر أحدا، وتفويتهم له يعني يوما بلا عمل وفي ألطف الأحوال وابلا من الشتائم واقتطاعا من الأجر.

اصطفيت زبائني بعناية. رجال طيبون.. موظفون يقبلون بدفع المقابل مسبقا. ومع هذا حين كنت أشعر بعسر أحدهم أتغاضى عن أجرتي على أن يعوضها عليّ مرة قادمة. فهموا



facebook.com/the.Boooks

لطول المعاشرة أنني لا أحب الخوض في الدردشات غير الهادفة، ولأن معظم أحاديث الناس اليومية تافهة- ربما لتفاهة حياتنا- فقد وقع زبائني عقودا مع البكم، تبدأ بمجرد انتهائهم من جملتهم الصباحية "صباح الخير" وتنتهي حين ينزلون من سيارتي بقولهم "تبقى على خير". وقد أعجبني أنهم وطوال أعوام لم يجرؤوا على سؤالي عن اسمي ولا عن أي شيء يجعلهم يتصورون أنهم على معرفة بي. كل ما يهم أنني السائق الطيب ذو البذلة الثلاثية القطع الذي يقلهم صباحا من منازلهم، ومن محطة القطار إلى مراقدهم مع آخر رحلة. وبدا لي أنهم سعداء بجهلهم لشخصي كما كنت ولا زلت سعيدا بذلك.

وكدأبي منذ أربعين سنة، شربت أول فنجان قهوة بمقهى المحطة. دخنت معه ثلاث سجائر لا تكاد تنتهي واحدة حتى أشعل بعقبها أخرى. ومع انتهاء الأخيرة أدركت أن بيني وبين موعد الرحلة أربع دقائق أقضيها للوصول إلى مكاني بالقطار، لأضع دبري على المقعد وتبدأ رحلتي نحو العاصمة.

تخيرت مكان جلوسي الذي لم يكن إلا المقعد الذي أشغله عادة كل صباح، في نفس الزاوية بجوار كابينة السياقة. وضعت محفظتي على حجري. وحين شعرت بأن التبغ والقهوة اللذان تناولتهما أتيا بمفعولهما فتحت محفظتي لأخرج منها قلما وورقة وكتاب. فقد قرأت في أربعين سنة 2320 كتاباً، كتاب كل أسبوع. بدأت قراءاتي بالعربية والفرنسية، وما لبثتُ أن أتقنت



facebook.com/the.Boooks

ثلاث لغات أخرى تعلمتها بمفردي، فالحياة التي اخترتها لنفسي يوم قررت الانطلاق بسيارتي البيجو ذات يوم من عام "1972" قلصت من خياراتي في المجمل ولكنها منحتني مساحات من الوقت جعلتني أحقق ما يحلم به أي شخص من الثقافة، فلا بأس أن أقول لك أنني رجل مثقف، رغم أنه وصف لم يعد يليق إلا بمن لا يجيد أي شيء غير التباهي.

... وانطلق القطار كما انطلقت في قراءة كتابي.

وإذ أنا أسوي قعدتي، شعرت بشيء في الجيب الأيمن من سترتي. توقفت عن القراءة وهممت بإخراجه.

كان الأمر غريبا في أن أجد شيئا في جيوبي. علمتني التجربة ورغبتي في الاقتصاد بأن هنالك ثلاثة أمور على المرء تفاديها إذا رغب في إطالة عمر ثيابه: لا يضع شيئا في جيوبه، ولا يلبس نفس الثوب لأكثر من يومين والأهم أن لا يغسلها منزليا.

حين سحبت ما في جيبي، أدهشني أنه هاتف محمول. كان بحجم أصبعين: في الطول والعرض. تفحصته فأدركت أنه مغلق. وقبل أن أفعل ما يجدر بأيّ شخص أن يفعله في مكاني، أي تشغيله، رحت أفكر في الطريقة التي وصل بها إلى جيبي.

أستحي الآن أن أذكر لك ما حدث معي بالتفصيل ولكن لا مفرّ من ذلك، من باب أن أجعلك مؤمنا بفكرة واضحة جدا. أعتقد أن الإيمان بها ضروري ليجد ما أقوله لك



facebook.com/the.Boooks

منطقا ما، فالأمور لا تحدث بلا سبب، ومن طبع هذه الأسباب أن تكون غير بريئة في معظم الأحيان.

وعلى ذكر البراءة، فقد كان لدي صديق اسمه عبد الله طرشي. رجل طيب لا يغويه إلا شيئان: المرسيدس والنساء. ولعله من أجلهما تعلم غواية جديدة هي الأناقة، فلا يعقل بمن يسوق مرسيدس ويغازل النساء أن يكون سيء الملابس والرائحة. أحب الله بطريقته وأعتقد أن الله أحبه أيضا، بدليل أنه مات في حادث في سيارته المرسيدس وبجانبه امرأة، لم يجزم أحد بجمالها ولكن الجميع أجزم أنها وجدت جثة هامدة داخل السيارة شبه عارية. ولعل بعض الألسن فصّلت في عريها بنحو قد تشتهي لو أخبرتك به الآن، لكنني لن أفعل. فكما تعلم للموت حرمات ولأنه كذلك فسأقول لك -كذبا- أن لا أحد تكلم بالمزيد..

عرفته وأنا ابن العشرين من عمري، مباشرة بعد أن دخلت "الثنية" أول مرة. لا أدري ما الذي جعلني أتوقف في هذه المدينة لأجعلها لاحقا مقر إقامتي. أحب أن أقول "إقامتي" وليس "سكني"، ولهذا سبب أرجئ الحديث عنه. وهناك تعرفت عليه في طريق جانبية وقد عطبت سيارته المرسيدس. بقيت معه يومها إلى أن أعاد تشغيلها، ومن وقتها ونحن صديقين.

لطالما قلت أن لديّ حبيبة وصديقا.. سيارتي وعبد الله، ولطالما قال أن لديه صديقا وحبيبة.. أنا وسيارته. أما النساء



facebook.com/the.Boooks

فلم يكن بالنسبة لي إلا كما أوضحت لك من قبل. أما هو، فكن بالنسبة إليه مغامرة لا تطيب حياته بغيرهن، ومع ذلك فقد كان يقول في كل مناسبة أنه يمقت كل بريء ومن مقته هذا جاء حبه للنساء. لم يكن يعني أنهن غير بريئات، فما قصده هو أن الطبيعة حبت أجسادهن بكل شيء غير بريء. وحين كنت أضحك، كان يزجرني لأنه أدرك وقتها أن فهمي للحياة ليس إلا تظاهرا بفهمها. وهو من أجل فهمها توغل في دراسة علوم لم تكن لها علاقة بتعليمه، وسافر إلى أصقاع من الدنيا جعلته يتواطأ مع الضياع ليهبه أعواما من عمره، إلى أن استقر في "براغ" وفيها عاشر فلسطينية قذفت بها أحداث أيلول إلى هناك. كل ذلك من دون أن تنقطع صلاته بالبلد، فقد اشترى شقتين، واحدة ملّكها لإحدى قريباته من دون مقابل والأخرى جعلها مستودعا لكتبه التي بلغت العشرين ألف كتاب بحسب ما أخبرني به.

الآن وأنا أذكر ذلك، يمكنني الجزم بأن عبد الله من حبّب المطالعة إليّ. وكان تمكنه من اللغات ما دفعني لتعلم لغات جديدة، رغم أنني تركت الدراسة أياما فقط قبل اجتيازي لامتحان البكالوريا، وبالتالي لم أمتلك أي شهادة تثبت لي أي نوع من الكفاءة على خلاف عبد الله الذي امتلك عددا منها جعلني -حين أحصاها- أدرك ضعفي في الحساب.



facebook.com/the.Boooks

في براغ استمتع عبد الله بنوعين من العلاقات: علاقته بالله وعلاقته بالنساء.

كان الله بالنسبة إليه تعبيرا ميتافيزيقيا عن الحب، وما النساء إلا تجسيد مادي له. لهذا لم يكن يجد أي تناقض في أن يكون المرء مؤمنا ونكاحا مغرما بالجنس في نفس الوقت. حتى رأى أن الإيمان لا يمكن أن يستقر في روح رجل لم يستقر إيره في فرج امرأة قط. لذلك فشكل الإيمان وطرائقه غير مهمة تماما كشكل المرأة التي تعاشر وطرائق معاشرتها، ما دامت المتعة محققة في النهاية. ألم ينسب إلى الحلاج أنه قال "إنه الفرج.. منه خلقنا وإليه نعود"، حتى إن بعض الإسماعيليين يعبدون فرج المرأة لا على اعتباره إلها، بل لأن فيه من الحلاوة ما يرقى بالنفس إلى معرفة معنى انصهار الروحين في لحظة التوحد. كان عبد الله مدركا لكل هذا، ولكن إدراكه كان أسمى من أن تؤطره عقائد موروثة حتى تلك التي تعمل الديانات على اعتبارها بديهيات لا تستدعي أيّ إثبات، أو تلك المستمدة من فلسفات عظيمة لرجال فهموا حقيقة الوجود. وكان عبد الله واحدا منهم حين أهدى حياته لمعرفة السر الأعظم بطرحه للسؤال: "ما الذي يجعل من الأشياء غير البريئة مداخل لبلوغ البراءة.. الحب؟". أدرك بعد طول بحث أنه سؤال لا يحتاج إلى إجابة لعدم وجودها في الحقيقة، فقد كان سؤالا كونيا، أما الإجابة مهما كانت فستحاصرها البداية والنهاية، الميلاد



facebook.com/the.Boooks

والموت. لهذا حوّل اهتمامه لإيجاد حصر معقول للأشياء غير البريئة التي في أصلها لا نهائية العدد، وهو ما دعاه إلى عقلنة بحثه بمعرفة بسيطة لما تشترك فيه تلك الأشياء. لم يحتج الأمر منه إلا لعقدين من حياته ليدرك بأنها تشترك جميعا في الشكل.. حينها فقط نطق بحكمته الأولى والأخيرة، والتي جعلتني حين تفوه بها أول مرة أمامي أضحك والتي تجعلني الآن أدرك كم كان حكيما صديقي عبد الله حين أدرك أن لا براءة في الأشكال الدائرية، ولدائريتها فقط تحمل لنا تلك المتعة التي نسميها الحياة..

لهذا ما زلت مصرا-كما أخبرتك- أن ما سأرويه لك وإن كنت أستحي من ذكره فلا خيار لدي إلا أن أرويه بالتفصيل، من باب أن أجعلك مؤمنا بفكرة واضحة جدا، وهي أن الأمور لا تحدث بلا سبب، ومن طبع أسبابها أن تكون غير بريئة في معظم الأحيان....

أخرجت الهاتف من جيبي ويقيني أن أحدا وضعه هناك.

في حياة كالتي كنت أعيشها، لا يجد المرء صعوبة في تذكر التفاصيل، لا بسبب بساطتها، بل لأنني وقبل أربعين سنة حتى ذلك اليوم، غرزت فيها ما يجب لتكون كتابا بصفحة واحدة، تتكرر فيها الأيام لتتشابه إلى حد التطابق، مع استثناءات قليلة جدا، تبدو لندرتها أنها قابلة للإهمال. لك أن تقول أن تلك



facebook.com/the.Boooks

الاستثناءات تشبه إلى حد كبير ما يحدثه يوم إضافي في سنة كبيسة. لا أحد سيجيبك حين تسأله عن عدد أيام السنة برقم مختلف عن 365، رغم علمه أنه رقم يتغير كل أربعة أعوام.

وبنفس المنطق عرفت من وضع الهاتف في جيبي.

لقد قلت لك أنني كنت متعبا الليلة قبلها إلى درجة أن غططت في النوم من دون أن أغير ملابسي. ما يمكنني الجزم به الآن هو أن تعبي لم يكن له علاقة بيوم عمل شاق، وهو أمر ستدركه لاحقا، كما ستدرك أنني ومنذ انطلقت بسيارتي البيجو في ذلك اليوم من عام 1972 لم تعرف أيام حياتي أي يوم يمكن وصفه بالشاق. ولا علاقة لتعبي أيضا بظروف حياتي ولا بتقدم سني.

ما حدث فعلا وأنا عائد مساء البارحة في آخر رحلة، أن صاحبة الصوت الناعم أعلنت من مكبر الصوت بمحطة الجزائر أن قطار الساعة السابعة سيتأخر عن موعده بساعة ونصف. لم يكن للأمر أهمية بالنسبة إليّ، فلا أحد ينتظرني في الطرف الآخر من الخط سوى زبائني الذين سيتدبّرون وسيلة نقل أخرى تقلهم إلى مراقدهم. ولا أملك أحدا قد يقلق لتأخري، فلا زوجة ولا أولاد ولا جيران لدي. أما حارس الحظيرة حيث أركن سيارتي للمبيت فهو أعلم الناس بأن مسألة ركني لسيارتي هناك مؤكدة كالموت، الذي لا يوجد سواه ليجعلني أرجئ الأمر لوقت آخر.



facebook.com/the.Boooks

لو شئتَ الصدق، فقد كان إعلان صاحبة الصوت الناعم بمثابة نعمة حظيت بها لتمطيط وقتي المخصص لقراءة كتابي.. وهكذا فعلت إلى أن أعلنت صاحبة الصوت الناعم أن قطار الرحلة الأخيرة سينطلق بعد لحظات.

لن أحتاج إلى أي وصف للمحطة حينذاك يجعلك تصدق بأنها كانت خاوية، ولا لأقول بأنني كنت المسافر الوحيد في هذا القطار المتأخر، لن أجزم بذلك فما لا تراه عيناي لا أومن بيقينه، والحقيقة أنهما لم تريا إلا العربة التي ركبتها والتي فيها كنت المسافر الوحيد. على الأقل، كنت كذلك لمحطتين متتابعتين إلى أن صعدت امرأة ثلاثينية من محطة بلكور.

نظرتْ صوبي مباشرة وقد بدا أنها أدركتْ بأن العالم المكتظ بفحوله عادة، انتهى إلى عالم مقرف لخص الرجال في "ستينيّ" منزو حيث كنت. ربما كان الخوف مما لا تدري ما جعلها رغما عنها تتقدم صوبي وعلى وجهها ابتسامة جعلتني أتذكر كم يمكن أن تكون في الحياة مباهج تستحق أن تعاش.

كانت بيضاء بحمرة خفيفة على وجنتيها. أغلب الظن أن البرد المتربص خارجا أثاره وجهها حتى قرصها، وربما عض خديها كذلك. الحق أنها كانت جميلة على نحو فض بالنسبة لشيخ في مثل عمري.



facebook.com/the.Boooks

وحين جلستْ قبالتي محركة شفتيها الورديتين بما قد يعني "مساء الخير"، خُيّل إليّ أنني سمعت صهيل حصاني، لكنني حين اصغيت السمع أكثر تيقنت انه صامت.

هذا دأبي به عادة، فهو على نقيضي أكثر ذكاء مني، يعلم جيدا متى يصهل ومتى يلتزم الصمت. أحسب أنه فهم أخيرا أن خروجه من الإسطبل لا يعني في أغلب الأحيان أكثر من خروجه منه. ولربما يكون قد مل من كل تلك المرات التي أجهده فيها لعمل لا يدوم لأكثر من سبع دقائق على أقصى تقدير.

ووقتما اطمأنيتُ لموته المؤقت، غيّرت المرأة من مكان جلوسها وجاورتني. أحسست وطرف ردفها يلمس ظاهر فخذي، أن حصاني وجل للحظة، ثم سرعان ما استفاق حين سألتني: "أعندك سيجارة؟". لم أجب وسحبت واحدة من العلبة بيد عاودها الارتجاف. هذه المرة كنت موقنا ألا علاقة لرجفة يدي بأي مرض، فقد شعرت بالارتعاش في كامل مفاصلي. حاولت تقديمها لها فحركت رأسها أن "لا"، ففهمت أنها ترغب في أن أشعلها بنفسي. وحين فعلت، تركت متعمدا بعض ريقي على عقبها، فقد صُوّر لي وأنا أفعل هذا –وعيناي مسمرتان على صدرها– أنني أمص حلمة ثديها.. أعترف أنني تصابيت لحظتها ولكنه كان تصاب يستحق.



facebook.com/the.Boooks

أخـذتْ نفسـين سـريعين وأعـادت إليّ السـيجارة. قالـت برقـة: "خـذ نفسـا معـي". وضـعتها بـين شـفتيّ مسـتمتعا بطعـم شـفتيها ورائحـة فمهـا وقـد غـيّرا طعـم التبـغ. وإذ ذاك سمعـت صـهيل حصـاني مجـددا ويقيـني بأنـه لم يُخيـل إلي هـذه المـرة. لقـد استفاق وما هي إلا ثوان وتنتصب الخيمة.

أحسست بالتهديد فقلت لها: "هل تستقلين نفس الرحلة كل يوم؟". قالت: "ليس هناك ما يستحق الرحلة كل يوم". لم أفهـم عنهـا وقبـل أن أقـول شـيئا آخـر أضـافت: "لكنـني أعلـم أن رحلة اليوم تستحق". ثم انشغلت بحقيبة يدها السوداء، ويداها الصـغيرتان تلهيـان بمـا فيهـا، وفجـأة أخرجـت ورقـة بـألف دينـار طوتهـا وهـي تحـدق فيّ مبتسـمة، ومـا لبثـت أن أعادتهـا إلى حقيبتهـا، مخرجـة مجـددا شـيئا آخـر، لم أتبـين ماهيتـه في الأول، ولكـني حـين أمعنـت النظـر أدركـت أنـه واق ذكـري. أبكمـني الذهول لحظة لأفهـم في النهاية بأنها عاهرة. صرخت رغما عني "قحبة"، غير أني حين نطقت بذلك شعرت بأنها كلمة خرجت من حلقي بشكل مختلف عن العادة. كانت رنتها شبيهة بقول أحدهم "جميلة" أو شيئا من هذا القبيل. وهممت لأنهض لو لم أشـعر بـأن أوتـاد الخيمـة قـد نُصبت ولا مجـال للتبـاهي بعفـة لم أملكها قطّ أو الوقوف أمامها وعلى حجري يجلس الشيطان.

أشـحت بنظـري عنهـا وأنـا أدعـو بـداخلي أن لا يفضـحني حصـاني ذو وجـه السـيكلوب فيشـرع في البكـاء، فقـد انقضـت



facebook.com/the.Boooks

سبع دقائق ومن عادته–بعد انقضاء هذه المدة– أن يدع الدمع ينهمر. لقد كان هذا السبب كافيا لتحبني لأجله عاهراتي، ولسببه كنت أحظى بتخفيض مناسب في كل مرة، حتى إن إحداهن خصصت لي وقتا بدون مقابل، لا رأفة بي، بل لأنني كنت بالنسبة إليها كما قالت تحلية ما بعد العصر، غير أنها أخفت عني حقيقة أنها تحلية لا تقدمها إلا مرة كل بضع سنين.

وعوض أن أفعل شيئا حين شعرت بيدها على فخذي تجمّدتُ في مكاني مبهورا وكأنها أول مرة لي. كنت أشعر بيدها الصغيرة تتقدم نحو بوابة الجحيم. وتمنيت لمرة أن تتوقف ولمرتين لاحقتين أن تستمر في التقدم. أدركت وهي تفتح سحابة سروالي وتخرج الحصان من الإسطبل، بأن يدها تفهم في الديمقراطية. وكما اتفق، لم يحتج الأمر جهدا لتمسك برأس حصاني الذي بضربة سحر تحول إلى وتد. لن أدعي أنه كان وتدا قاسيا، مستلذا في الصلابة، فحتى وإن استطال فقد كان يبدو في يدها مسترخيا لينا وكأنه حقن بمخدر، ولكنها بمهارة أخذت تهدهد رأسه وتمسح عليه حتى بدأ يشتد عوده. وفي لحظة لا يبدو أن أحدا شعر بها سواها، مالت إليه بفمها حتى أطبقت عليه بشفتيها لتسمح له بولوج عتمة فمها وهو يستطيل حتى بلغ أقصى ما يقدر من الصلابة. وأنا في كل ذلك أصطنع الحياء إلى درجة أنني لم أضع يديّ عليها، ولكنها حين بقيت ساكنة وعود المطاط الذي أصبح وتدا صلبا في



facebook.com/the.Boooks

فمها، تجرأت ووضعت يدا على رأسها حتى لا تتحرك فتضيع عليّ المتعة الكاملة، ومالت يدي الأخرى إلى صدرها باحثة عن منفذ للقاء حلمتيها.

ولأول مرة لم يبك السيكلوب، وبقي صامدا في رحلتيْ ذهابه وإيابه داخل فمها، فلا شفتاها المنطبقتان عليه ولا لسانها المهووس بلعقه ولا حتى لعابها تمكنوا من إبكائه. ظل صامدا على غير عادته وكأنه كان في انتظار الأبد. سرني صموده إلى درجة أن نسيت تحرّجي منها قبل دقائق. وتحولتْ في لحظة شتيمتي لها "قحبة" إلى كلمة تعني "أحبك".

نعم.. شعرت بالحب ساعتها، فلم يكن ثمة من شعور آخر يستحق ضم تلك الدقائق إلا الحبّ. وبفضله فقط رأى حصاني سبيله في العتمة حتى بلغ النهر وشرب من ريقها حتى ارتوى. وبفضل هذا الحبّ بكى السيكلوب أخيرا إلى حد أن خلت أن كل دمعه جف.

ورغم كل ما حدث بيننا لم تقبلني كما لم أسع لتقبيلها. لا أعتقد أننا لم نرغب في ذلك، ولكن امتناع كلينا عن التقبيل ليس أكثر من رغبة لاشعورية اشتركنا فيها لنقول لبعضنا احتراما من نوع خاص.. القبلة دعوة لدخول أحدنا حياة الآخر، أما ما فعلناه معا فليس سوى جلسة بريئة لشخصين بالغين لتناول فنجاني قهوة. ولأن الأمر كذلك فلم نر مناصا من الصمت لئلا



facebook.com/the.Boooks

نقول لبعضنا أي شيء.

عادت إلى مقعدها كما عاد حصاني إلى إسطبله مرهقا، متعبا خائر القوى.

استويت في مكاني أعدل ملابسي، وما هي إلا لحظات حتى عدت الشيخ الطيب المنزوي في مكانه، وعادت هي المرأة الغريبة التي لم تجلس بجواري إلا طلبا للأمن.

شعرت بضرورة أن أمد يدي إلى محفظتي لأمنحها أجرتها، فقد استحقت كل قرش والله. وحين استقر رأيي على مبلغ بعينه توقف القطار. كنا في بومرداس، فانحنت نحوي وقبلتني على خدي وهمست لي "لا تفتح يدك الآن"، ودست في راح كفي ورقة ونزلت. شيعتها بناظري وقد استقر في قلبي أن تلك المرأة مكافأة لي من السماء نظير خير فعلته ذات يوم، أو ربما تكون ملاك حبّ سيّرته المشيئة نحوي لتبلغني رسالتها: "لا تيأس، ثمة دوما في الحياة ما يستحق". وحين نزلت فتحتُ يدي وإذا بها ورقة بألف دينار.. ضحكت من نفسي، ثم سرعان ما أدركت أن ما حدسته قبل أن يحدث أي شيء كان مجرد تفاهة. لم تكن هي العاهر، فالعاهر أنا وما هي إلا الزبون..

وقضيت ما تبقى من الرحلة في تذكر ما حدث واسترجاع مشاهد عهري.

استوقفتني صور عينيها، سرّتها، ثدييها، فمها.. كم كان حكيما صديقي عبد الله، فحقا لا براءة في الأشكال الدائرية...



facebook.com/the.Boooks

## -2-

لا أدري كم استغرقت من الوقت لأتمكن من التوقف عن الضحك، حتى أنني ولأول مرة في حياتي لم أهتم بما قد يفكر فيه الناس عني وأنا في حالتي تلك. أعترف أنني لم أضحك بهذا الشكل من قبل، ليس بهذا الصدق على الأقل. وحين توقفت وجدت العجوز ينظر صوبي وكذلك كان زبائن المطعم يفعلون، محاولين معرفة سبب تمكن جنون الضحك مني.

قلت وقد رفعت يدا في السماء كعلامة على اعتذاري ليكف الجميع عن التحديق بي:

- اعترف أن هذا من نسج خيالك، أيعقل..

وتملكني الضحك مرة أخرى.

رد بصرامة:

- أنا أسرد عليك قصتي يا رجل، فقليلا من الاحترام.

قلت وقد استعدت هدوئي:

- لا أدري ولكن طريقتك في سردها، وكل ما حدثتني عنه لحد الساعة.. لا أعرف.. دعك مني، ماذا حدث بعدها، أعني بعد اكتشافك لوجود هاتف في جيبك؟



facebook.com/the.Boooks

تابع وكأن شيئا لم يحدث:

- شغلت الهاتف. كنا قد بلغنا الرويبة وكتابي على حجري مستقر إلى حين.

وما أن شغلته حتى رنّ. نظرت فإذا بها رسالة. فتحتها وكانت فارغة.

كنت أعلم بحكم تجربتي بأن الرسائل الفارغة ترسل في حالتين فحسب: الخطأ ورغبة المرسل في معرفة إن شغل المرسل إليه هاتفه. لم أحتج إلى ذكاء خارق لأعرف بأنها الحالة الثانية، فقد رن الهاتف مرة أخرى، وكم سررت حين أدركت بأن على الطرف الآخر من الخط امرأة. "ربما نمت سعيدا ليلة أمس" قالت وأتبعت جملتها بضحكة أقسم أنها أيقظت حصاني مجددا، ولكنني نهرته هذه المرة وحككت ما بين ساقيّ ليفهم ألا يدا غير يدي ستلمسه اليوم. قلت متغابيا "من معي؟". والحقيقة أنه سؤال لا غاية له إلا كسب بعض الوقت لفهم المسألة رغم أنها كانت واضحة بنحو جليّ.

قالت "أكون من ترغب في أن تكون". وأتبعت جملتها بضحكة أخرى.

خمّنت بأنها طريقتها لتقول لي أنها امرأة القطار، ولكني أصررت على بلهي وقلت متغابيا "أقصد اسمك.. ما اسمك؟". "أيضا كما تحب.. ما رأيك بلبنة؟".

أخرسني اقتراحها وقد عاودتني ذكرى قديمة لامرأة تحمل نفس الاسم. ولأن العهر والصدفة لا يلتقيان سألتها: "ولماذا



facebook.com/the.Boooks

لبنـة؟" وضـحكتُ بـدوري ضـحكة سـلطوية مـن تلـك الـتي نسمعها عادة في مسلسلاتنا الرديئة، لكنها كانت أقل إقناعا بدليل أن المرأة على الطرف الآخر من الخط لم تبادلني الضحك وقالت بخبث: "تعلم لمَ يا قاسم".

أدركت حينها أن عليّ التريث واحتساب كلماتي، أما "لم؟" فعليك أن تصبر علي إلى حين أشرح لك أمرا كنت قد أرجأت شرحه في البداية.

لعلك تذكر أنني أجلت الحديث عن حياتي، وقد أكون قد أزعجتك باستعمالي لكلمات فضفاضة في وصفها، قد تعني لك كل شيء من دون أن تعني شيئا محددا. ولكن كما ترى فقد حان الوقت لتعرف قصتي وتفهم ما الذي جعلني أرتبك حين قالت المرأة "تعلم لم يا قاسم". فبالفعل اسمي قاسم وعلى الورق قاسم أمير.

وددت لو أكذب عليك الآن وأقول أن أبي سماني كذلك حبا في قاسم أمين.. تعرفه أليس كذلك؟: الرجل الذي تحدث عن المرأة وقال بضرورة تحريرها.. وددت أن أقول لك ذلك ولكنني سأخبرك بالحقيقة لا غير، فوالدي كان فلاحا ولا شيء كان ليجمعه بقاسم هذا إلا الاسم وربما الرغبة في تحرير المرأة، ولكن لا أعتقد أنه كان من أجل تحريرها يملك نفس الطريقة. ومع ذلك فقد كان مثله في تفانيه في هذه القضية، بدليل أنه قتل وأنا في العشرين على يد جار لنا ادعى دفاعا عن نفسه في



facebook.com/the.Boooks

المحكمة أنه وجده في فراشه من دون أن يضيف شيئا آخر. وهنا لست مسؤولا عما قد تفهمه أنت الآن من تصريح الرجل.

ووقتما قتل أبي كان قد مضى على رحيل أمي سبع سنوات. ولست هنا أعني أنها توفيت ولا أنها تطلقت من أبي. ففي أحد الأيام اختفت وثيابها وحليها وحقائبها، وعبثا حاول أبي البحث عنها.

أحفظ في رأسي عشر روايات أُخبرت بها عن اختفائها. ألطفها أنها فرت مع عشيق لها وأبشعها أن أبي قتلها وأحرق جثتها ثم طحن عظامها ورمى السحيق في أحد الأودية. وهي كما ترى روايات قد يبحث من يهتم بها في صدقها، أما أنا فاكتفيت بحقيقة واحدة لا غير، وهي أنها رحلت وأنى تكون اليوم فلا بد أنها سعيدة.

أعتقد أن مقتل أبي ما جعلني أضع قدمي على دواسة سيارتي البيجو لأنطلق بها. فكرت في البداية أن أسيح بها وأعود لاحقا، ولكن فكرة عودتي إلى حيث لا أحد لم تثرني بالقدر الكافي لأرفع قدمي عن الدواسة وأعود أدراجي، حتى وجدتني في الثنية التي بقيت فيها إلى ذلك اليوم.

***



facebook.com/the.Boooks

قاطعته

"يا ألله، أتقول أنك ومن يومها لم تعد إلى بلدتك؟".

- ليس تماما، فقد عدت قبل سنتين، ولكنك لو صبرت قليلا لأخبرتك.

تضاحكت كطريقة لإبداء أسفي. قلت:

- بالمناسبة يا قاسم اسمي نور الدين. من الغريب أننا لم نسأل بعضنا عن اسمينا حتى الآن.

- ربما، فليست الأسماء إلا عناوين نعلقها، من الجيد معرفتها ولكن لا ضير في جهلها أيضا. لك أن تقول أنها مجرد طريقة ابتكرها الإنسان لمجابهة التيه.

قلت:

- أوافقك تماما.

وإذ ذاك ابتسم قاسم.

سألته: وما الداعي لهذه الابتسامة، هل قلت أمرا مضحكا؟

- يا لعدائيتك يا رجل، كل ما في الأمر أنني أدركت للتو، أنها أول مرة توافقني على فكرة منذ التقينا.

ضحكت وأنا أشير إلى النادل ليحضر لنا قارورة ماء.

- بالطبع أوافقك، لا يمكنني مجادلتك في الحقيقة.

- الحقيقة؟.. هذه كلمة فضفاضة جدا، حتى أنها قد تكون الكلمة الوحيدة التي قد لا تعني شيئا رغم أنها



facebook.com/the.Boooks

تعني كل شيء. أراها كمجسم لا نهائي الأبعاد، كل بعد منه مشكل من أبعاد لانهائية.

هززت رأسي وقد غمرني شعور بالاكتئاب لم أعرف مصدره. همست: "كالحياة".

- بالضبط كالحياة تماما، كل واحد منا يراها بطريقته، فمفهومك لها مختلف مهما تطابقت أفكارنا عن مفهومي لها، وكلما تقدم بنا العمر وزادت تجاربنا بنجاحاتها وخيباتها، يتغير مفهومنا لها.

بالنسبة لي، كانت الحياة تعني شيئا آخر غير الذي تعنيه لي اليوم، فعندما انطلقت بسيارتي في ذلك المساء، قررت أن أعيش سائحا وعشت حياتي كذلك بالفعل. فلطالما امتلكت فهما بسيطا للحياة، وحاولت قدر الإمكان أن أُعمل هذا الفهم في حياتي. لقد أدركت أن الحياة مهما بلغت من ترف فليست سوى رحلة قصيرة في اتجاه واحد، ومن البلادة حقنها بما يجعلها أقصر أو حتى بما يجعلنا نفوت ما فيها رغبة في الحصول على ما ليس فيها. أدركت أن الإنسان إذا تمكن من تحييد مشاعره فلاشيء بعدها يكون قادرا على منعه من ممارسة حياته كما خلق لها، فالحزن مرتبط بالألفة، والكره مرتبط بالحب، والشبق بالكبت والخيبة مرتبطة بالأمل واليأس مرتبط بالطموح. إدراكي لهذه الحقائق جعلني أوقن بأن أجمل حياة يمكن أن يعيشها المرء هي الحياة البسيطة: لا تملك ما لا



facebook.com/the.Boooks

تستطيع حمله أو ما لا يقدر على حملك.. حياة تضمن لك القدرة فقط على البقاء حيا بالقدر اللازم لتمارس ما اخترته من غوايات. ولقد اخترت أن تكون حياتي كذلك بالفعل.

مع ذلك، عندي اعتقاد راسخ أنني لم اختر حياتي، فهي من اختارني في الحقيقة حين هيأت لي الظروف-كل الظروف- لأتعرف عليها. ففي ذلك اليوم الذي انطلقت فيه بسيارتي لم أكن مهيئا للسفر فما بالك للذهاب بلا رجعة. كل ما جال برأسي حينذاك أن أقطع بعض المسافة وأعود إلى المنزل لأتلقى العزاء وأدفن والدي، فقد احتجت لبعض الوقت فقط لأتقبل فكرة يتمي وأتعامل معها.

أذكر أنني وقبل أن أركب سيارتي سرت لنصف كيلومتر على قدميّ حتى بلغت تلا اعتاد أبي الجلوس فيه. وكان سبب جلوسه هناك أنه يطل على القرية ومن عليه كان بمقدوره أن يرى أي شيء يحدث فيها.

يمكنك الآن أن تعرف أن اسم قريتي هو "عين طير الزين". قرية تسكنها عائلة واحدة. لم يكن أبي فردا منها، وما إقامته هناك إلا لأنه صاهر أحد أفرادها. ولولا يقيني أنه كان أميّا لصدّقت الإشاعة التي زعمت بأن أبي كتب بيت شعر على صخرة اعتاد الجلوس عليها في التل.



facebook.com/the.Boooks

يزور القرية اليوم الكثير من السياح. يخبرهم أهلها استبقاء لهم بقصص خرافية عن سبب تسميتها أو بقصة رجل قتل زوجته وفقد ذاكرته بعدها، ومن فرط الصدمة توهم أنها اختفت فحسب، وأنه هام أعواما بحثا عنها من غير طائل، وحين أعياه البحث كتب على صخرة التل: نزلت بطير الزين أطلب ريحها أما عاد طير الزين وادا لمن أهوى

وحين فرغ من كتابة هذا البيت فارق الحياة.

قصة جميلة كما ترى، رومانسية بنحو ما، ولكنها مجرد قصة..

وقوفي هناك جعلني أدرك حجم العالم الذي كنت أعيش فيه. وفي لحظة شعرت بالضيق، حتى لم أدر كيف ركبت سيارتي وبلغت بها سور الغزلان. وكنت على وشك العودة حين استوقفني أحدهم لأقله إلى البويرة بمقابل. وجدت الأمر ممتعا، بحيث ملأت خزان الوقود بنصف ما أعطاني واحتفظت بالباقي. وهناك سألني آخر أن أقله إلى الثنية ففعلت، حين بلغت تلك المدينة خطر لي أن مسألة العودة إلى قريتي لم تعد أمرا مقدرا.. وكان كذلك بالفعل.

من يومها وأنا مقيم هناك. أعتاش من زبائني، وبهم ضمنت الحد الأدنى من الحياة.



facebook.com/the.Boooks

أقلهم كل صباح إلى محطة القطار، ومنها أعيدهم مساء إلى منازلهم. وبين أول رحلة وآخر رحلة للقطار أعيش مع كتبي، فأنا على عكس ما قد يتصورون لا عمل لديّ. أقضي يومي في القراءة داخل نفس القطار لا أنزل منه إلا أتغدى أو لأشرب فنجان قهوة أو لأقضي حاجتي. هكذا مضت حياتي في حركتين: ذهاب وإياب. كم يعجبني أن أتصورها في حركتها كإير داخل فرج. مضاجعة لا تتوقف أبدا، متعة مستمرة غير راغبة في الانتهاء... ألم نعتد كلما ألمّ بنا شيء أن نقول بأن الحياة قحبة. على الأقل عاملت حياتي كذلك.

***

قال ذلك وصمت، شعرت حينها بألمه. قد أكون ممن لا يأبه بماضيه وأنا كذلك بالفعل، بيد أنني لطالما كنت مدركا بأن لامبالاتي تلك سببها، عدم وجود مآس في حياتي. لقد عشت حياة لا حوادث فيها. لم أعرف الفقر ولا الجوع ولا التشرد يوما. ثمة الكثير من الكلمات التي أحفظ لا تحمل مدلولا ملموسا بالنسبة إلي. ربما لهذا لم يشكل عندي الماضي أي نوع من الهوس. ببساطة لأن ذكرياتي على كثرتها لم تربطني بأي ألم، على النحو الذي يربط سواي.

أعرف أن من لا يعرفني يشكك في تلك الحقيقة، حقيقة أن ماضي خال من كل تعاسة. ولكنه بالفعل هكذا. لم أزوره



facebook.com/the.Boooks

ولم أسع إلى تجميله أو تجاهله، كما فعلنا بماضي هذا الوطن. أدركت ومن البداية أن على حياتي أن تكون كما تكون وليس كما أودها. عشت فيها إنسانا بكل ما يعنيه الانتماء إلى البشر. لم أسع يوما لأكون ملاكا ولا أحسب أنني رغم أخطائي وآثامي تخطيت إنسانيتي لأصير شيطانا. ليس على أحد أن يضفي التقديس على نفسه أو سواه، كما لا يمكن لأحد أن يعمل في نفسه أو غيره سوء الظن بالمطلق.

***

سألت قاسم:

- وماذا كانت تريد منك تلك المرأة على الهاتف.
- هذا ما سألتها عنه أيضا. أجابت "لاشيء لي". وهي تظن أنها بذلك تستحثني للحديث. صمتُّ ثم قطعت الخط. كان الكتاب على حجري وبسبب صوتها المترنح ارتفع ببضع سنتيمترات. لا بأس أن أقول بأنه ارتفع بنحو 19 سنتمترا قد تزيد أو تنقص بمليمترات، فلم أعد أذكر الطول بالتحديد ولا صرت مهووسا به مثلما كنت في شبابي.

رن الهاتف مجددا فقطعت الخط من دون أن أنظر في الشاشة. ثم رن ثالثة. نظرت فإذا بها رسالة. قرأت "لا بأس،



facebook.com/the.Boooks

أراك مساء، في آخر رحلة للقطار". لحظتها عاودتني ذكرى ليلة أمس وإذا بالكتاب يقفز من حجري..

حينهـا أدركـت أن اليـوم سـيكون أطـول أيـام حيـاتي. وبالفعل، فقد قضيته في انتظار قطار السابعة. صحيح أن هذا ما أفعله في العادة ولكن ترقب "لبنة" زاد من طول يومي.

وعلى غير عادتي، نزلت في محطة الحراش حوالي الرابعة. سرت على قدميّ حتى بلغت الساحة المركزية ودلفت إلى زقاق ضيق اعتاد الحراشيون على تسميته زقاق الخياطين. في نهايته دخلت دشا صاحبه من "جُوّاب". قال حين رآني: "ليست عادتك يا شيخ". ابتسمت له وقلت: "أحتاج إلى المرحاض فحسب". ابتسم بدوره فأبان فما فارغا من الأسنان. شعرت بحسرته فقلت: "ربما سأستحم أيضا ولا حاجة أن أعود يوم الجمعة". قال: "أتركها ليوم الجمعة ولا تهتم، أما دش اليوم فعلى حسابي". أفزعني كرمه، فكما قلت هو من جواب.

بعد أن قضيت حاجتي وتخلصت من رغبتي، حلقت ذقني وعانتي وما تحت الإبطين. وقبل أن أخرج كلّمت حارس الحظيرة وسألته عن فندق في نواحينا لا يسأل عن الوثائق. رد ضاحكا: "بصحتك يا شيخ". أضفت: "مللت المبيت في السيارة واشتقت إلى النوم على سرير، وتعرف أنه ليست لديّ



facebook.com/the.Boooks

وثائق". ضحك مجددا: "كما تريد"، ودلني على فندق بنواحي "تيجلابين". أضاف: "الليلة بأربعة آلاف، وحدك أو مع خنزير لا يهم". وقطع الخط بضحكة.

لحراس حظيرتي قصص كثيرة معي. فهم على الرغم من تغيرهم كل مدة، يملكون لو سألتهم عني نفس الصورة. يقولون: "طيب وظريف". أما طيبتي فسببها ابتساماتي التي أوزعها عليهم في كلّ حين. يصعب في هذا البلد أن تعثر على وجه بشوش بغير سبب. الناس معذورون في الغالب... لا تخف، لن أحدثك عن مآسيهم، ولا حتى عن أسباب عبوسهم والتي قد لا تعنيك أو تحسب بأنك تعرفها أكثر مني. ما يمكنني قوله لك الآن أن لا أحد حتى أنا قادر على وصف مآسيهم. ولا أعتقد بأن ثمة عقلا يقدر على أن يفسر لك ولو بعد مليون قرن كيف يمكن أن يعشق الفقر رجلا في دولة تحتضن من المال آلاف البلايين. ربما يكون هذا سبب بشاشتي، أقصد أنني راض على حياة لا حياة فيها، ولأنني راض بها، فيمكنك فهم أن عدوى مآسيهم لا تصيبني لتؤثر على وجهي وتمحو عنه ابتسامتي.

أما ظرفي فسببه في الغالب ما سمعوه عني أو حتى ما شاهدوه تلصصا.



facebook.com/the.Boooks

قاطعته:

- لا أقول أنني غير مستمتع بحديثك، ولكنك تقفز على بعض التفاصيل قفزا. قلت لي أن امرأة القطار ادعت أن اسمها لبنة، وكما يبدو فقد أفقدك هذا الاسم تركيزك حين ذكرته. أم أنا متوهم؟
- صدقت، ولكنها طريقتي في الكلام، سأجاريك الآن وأقول أنني أغفلت هذا التفصيل، ولكنني لم أفعل في الحقيقة. فقط لو لم تكن متعجلا.

ضحكت وأنا أشير إلى طعامه:

- أنا المتعجل؟!، انظر إلى طعامك لم تتناول منه شيئا وقد برد. يعني لو تركتك على هواك لتعفن، وما كنت لتأخذه إلا حقن بنيسلين.
- صدقت. على كل حال لست جائعا، رغبت فقط في أن نقضي مزيدا من الوقت لأثبت لك خطأك في اعتبار أن الحب غير ضروري في حياة الإنسان، وبالخاصة في حياة من تقدموا في السن.

قلت ساخرا:

- ليس هناك كلام قد تقوله يمكنه إقناعي بغير ذلك. ولكن لا بأس، أملك عقلا متفتحا بما فيه الكفاية لأمنحك هذه الفرصة، رغم أنني أجهل ما قد تستفيد من إقناعي.



facebook.com/the.Boooks

- هناك دائما فائدة تجنى حتى من الثرثرة.

قلت وأنا أسوي جلستي:

- طيب ولكنك لم تجبني بعد عن سبب ارتباكك حين قالت المرأة أن اسمها لبنة.
- سأخبرك. تذكر أنني أخبرتك عن عملي وتخيري لزبائني من الموظفين الطيبين. في الحقيقة لم أكن أصطفيهم من هذا النوع حتى بعد أن حدث معي أمر جعلني أدرك أن الحياة-حياتي- رغم بساطتها هشة أيضا، وأن توازنها يقتضي أن أكون حازما، أو يجعلني أعمل على تطبيق ما كان الروس يرددونه "العمل ثم العمل والرفاق فيما بعد". أو هذا ما كانوا يقولونه حين توهموا في زمن كانوا سوفييتا بأن الشعارات تصنع مجدا، ولكنهم حين أدركوا العكس توقفوا عن بث الشعارات وتلقينها وترديدها وشرعوا في العمل بالفعل. نحن أيضا في هذا البلد توقفنا عن تلك الشعارات، ولكننا لم نفهم بعد بأنه كان يتوجب علينا بعدها مباشرة أن نشرع في العمل.

تذكر أيضا أنني قلت أن الرجل المسن يشحذ الحب ولو بمقابل. وهنا لا أشك في ذكائك حين فهمت أنني أقصد من ذلك استئجار عاهرات. ولا شك لدي أيضا من أنك بدأت تتقزز مني إلى حد القرف. كل رجائي أن تصبر عليّ قليلا



facebook.com/the.Boooks

لأشرح لك أمرا لا بد منه لتفهم أنني لست مخلوقا شهوانيا، فاحشا، مسرفا في الجنس.

قبل سنين لم أكن آخذ أجرتي سلفا. فالبلد لم تكن كاليوم. كنا بالكاد قد خرجنا من حرب أهلية دامية. والحق أنني ما كنت لأصف ما حدث بالحرب لو لم يسمح لنا رجل طيب من الحكومة بذلك. قبله، كان ما حدث مجرد أحداث شغب، ثم أصبح بحسب الرجل السمين صاحب نشرة الأخبار أعمال إرهاب لشباب مغرّر بهم، وحين سقط برجا نيويورك أصبحت أحداث إرهاب لجماعة إرهابية منظمة. ولكن بمجرد أن انضم هذا الوزير الطيب للحكومة أصبح ما جرى حربا أهلية بالكاد خرجنا منها. أعتقد أنه لطيبته لم يجرأ أحد ليهمس في أذنه: "يا رجل أنت تقول عكس ما تردد حكومتك منذ أزيد من عشرين سنة". ولطيبته أيضا بقي في الحكومة ولم يوبخه أحد. بقي صامدا فيها كحال العديد من الرجال والنساء الطيبين في هذا البلد.

وعلى ذكر الطيبة والصمود، فقد قررت ومنذ أيام عبد الله طرشي ألا أقرأ كتابا في السياسة. أدرك بالطبع أنني ضيعت بذلك فرصة فهم ما يحدث في العالم من متغيرات. حتى أني لم أجرأ ولا مرة على الخوض في حديث جاد بخصوص ما سمعت بأنه حدث في غير هذه البلاد. يقولون أن الشعوب العربية تحركت هناك، وأنها تخلصت من رجالها الطيبين. حتى أنني سمعت بأن تلك الشعوب تخلصت من حكومات أقل طيبة



facebook.com/the.Boooks

وصمودا من حكومتنا. سمعت بهذا ولا يوجد سبب يجعلني أكذّب ذلك، ما دام ما تحدثوا عنه حدث في غير هذه البلاد. وكم كنت أضحك حين كان بعض المتذمرين في القطار يتحدثون بحماسة ويقولون بأن الأمر سيطالنا وأنها مسألة وقت لا أكثر. كنت أضحك وما كنت لأفعل لو فقط قرأت كتب السياسة التي قاطعتها منذ زمن.، على الأقل كنت لأحقن عقلي بشيء من الوهم المسمى أمل.

لطالما أدركت أننا نملك نوعا خاصا من الرجال الطيبين، تماما كما نملك مفهوما للصمود يختلفان عما هو موجود عند غيرنا. رجالنا الطيبون أبديون، أزليون لا يحدهم أين ولا متى. حتى الموت لا يملك القدرة على رسم خط النهاية على درب حياتهم. لقد أوجدوا- بمجرد أن ابتكروا لهذه البلاد اسما- لأنفسهم ملاذا آمنا من الوقت، بحيث يمر ولا يهرمون. وطالما بقوا فيه وصمدوا في مواقعهم فلا شيء سيتغير إلا اسم اليوم والشهر ورقم السنة، وأيضا -وهو سرهم الأعظم- لا يتغيرون إلا بأسمائهم ووجوههم فحسب. أقرأ في الجرائد أننا امتلكنا كذا رئيساً وكذا حكومة فيغلبني الضحك. أرغب في الصراخ بالناس: يا جماعة.. كلهم واحد. أرغب في الصراخ بذلك ولكنني لا أفعل، فليس كل حقيقة تقال. ومع ذلك تغمرني الغبطة لكل تلك البلدان التي يقال بأن شعوبها بدلت رجالها الطيبين، وكلي أمل ألا يكون من جاؤوا أكثر طيبة.



facebook.com/the.Boooks

قلت، إنه قبل سنين كانت البلد غير البلد، ولم أكن أقبض أجرتي سلفا كحالي اليوم. فحين أخبرت زبائني برغبتي في أن يدفعوا مسبقا مقابل خدمتي رفضوا وذهب كل واحد إلى حال سبيله. ومضى عليّ زمن من الإفلاس غير الدائم، جعلني أحيانا أستغني عن وجبة الغذاء أو حتى عن قهوة المساء. ثم جاء زمن آخر ازداد فيه عسري حتى وجدتني أستدين من عبد الله لأجل لا نسميه. أما رحلاتي في القطار فلم تشكل مشكله على أي نحو، فقد دأبت على دفع اشتراك سنوي مع مطلع كل سنة.

وكملاك سقط من السماء، جاءني عبد الله بزبون جديد. قال إنها امرأة عرفها أيام مراهقته. لم يعد يراها ولكنهما ظلا على اتصال، تارة بالرسائل وتارة عبر الهاتف. وصفها لي بنحو جعلني أهرع إلى سيارتي، بحيث نظفتها وعطرتها بما يليق بصديقة عبد الله.

قال إنها زاملته في الثانوية وبعدها تزوجت من رجل رحل بها إلى الثنية، وظلت على علاقة معه حتى هاجر عبد الله. ولم يعد يراها حتى حين كان يعود إلى البلد في عطلة أو لقضاء بعض المشاغل. ولأن من عادة البين أن يطفئ نيران الحب، ومن طبع جميلات أوروبا الشرقية أن ينسينك اسمك أيضا، فلم يعد عبد الله راغبا فيها ولا هي كذلك. وهو ما وجده غريبا لأن زوجها كان عنينا. ما استنتج منه أنها وجدت عشيقا آخر.



facebook.com/the.Boooks

كان قد مرّ على ذلك أزيد من خمس عشرة سنة. وهو في كل تلك المدة أبقى على حطام ما تبقى من صداقتهما. لا لأنها عنت له شيئا أو عنى لها بالمقابل أي شيء، بل لأن العادات تمنح أحيانا ما لا يمنحه الحب.

أعطاني رقمها. حين كلمتها أخبرتني أنها تحتاجني سائقا خاصا، أقلها صباحا إلى بومرداس وأعيدها كل مساء. وجدت الأمر ملائما. فلم أكن بحاجة إلى تغيير حياتي التي اعتدتها. أعلمتها بعسري، فاقترحت أن تعطيني تسبيقا والبقية نهاية الشهر. وهكذا اتفقنا وسجلت عنوان منزلها. وفي أول يوم كنت عندها في الخامسة والنصف صباحا.

وإذ أنا في سيارتي أنتظر قدومها. باغتني صوت بدا حين ولج أذنيّ أنه صادر من السماء. التفت وبخاطري امرأة تكبرني مكتنزة وبشعر مسدول، أسود كثياب الإثم. فقد وصفها لي عبد الله حتى بدا لي أنني أعرفها، حتى بدا فارق العمر بيننا، وهو عشرة أعوام، تفصيلا مهما قد يثيرني بمجرد رؤيتها. فقد كان حظي العاثر في النساء أنني لم أقع أبدا على امرأة تكبرني، أو سوداء البشرة أو حتى أطول مني. وكنت أحب أن أجرب المتعة مع هذا النوع. أما "لم؟"، فلا أدري.

جال كل ذلك بخاطري حتى التفتُ. صدمت حين انعكست على مقلتيّ صورة بقرة تسير على قدمين. أقسم أنها



facebook.com/the.Boooks

بدت كبقرة هولندية مسرفة في السمنة. وأنا حين أصفها لك بذلك فلا أبتغي من ذلك تبشيعها، وليس أيضا بسبب أنني أملك أي تصور عن النساء البدينات. لكنني أؤكد لك حقيقة واحدة لا غير، وهي أنك لو رأيتَها مثلما رأيتُها، لنعتني بالكاذب أو كنت لتشفق على البقر أن يدعي أحد أنها منهم.

بدت كجبل من الشحم، ضغطه أحدهم حتى تدلى من الجانبين. في تلك اللحظة أدركت أن تخيلاتي تحققت في شخص واحد ولكن بصورة لم أتوقعها، فقد كانت كما تمنيت طويلة والأكيد أنها أكبر سنا مني.

ابتلعت دهشتي وابتسمت لها. قلت "تفضلي"، وفتحت لها باب السيارة الخلفي.

ابتسمت بدورها وقالت برقة "أفضل الجلوس بجوار السائق".

لم أنظر إلى ساعتي حينذاك، ولكن يمكنني الجزم بأنها استغرقت خمس دقائق لتتمكن من دخول السيارة والاستواء على مقعدها. شعرت حينها بالألم الذي لم تستطع سيارتي البوح به. ومع ذلك عزيتها في أن هذه التي بجانبي لن تكون ضرتها بأي نحو، فالقرف الذي كان في داخلي حول حصاني إلى سلحفاة، فبمجرد أن رأيت شكل تلك المرأة حتى انسحبت إلى قوقعتها. أعرف أنك تظن أنني أبالغ، ولأول مرة سأعترف وأخبرك أنني حقا أبالغ، وقد بالغت حين وصفت تحول حصاني



facebook.com/the.Boooks

إلى سلحفاة، لأن الحقيقة أنه مُسخ إلى حلزون ممعنا في الانكماش.

عند جلوسها، ملأت مقعدها بالكامل وفاض جانب منها إلى جهتي حتى انغرز محدد السرعة فيه. اضطرني ذلك كلما أردت الإمساك به أن أضع يدي أولا تحت ما تدلى من خصرها وأحركه بصعوبة.

مع الأيام ومع تكرر حركة يدي تلك فضلت ألا أفلت محرك السرعة من يدي كلما حركته، لتصبح يدي مع الوقت ملحقا عظميا لفائض شحمها المتدلي. ومر وقت آخر وظني أنها لم تكن تشعر بيدي هناك، فخطر لي أن أقرصها مرة.

قاطعته ضاحكا:

- قرصتها؟
- أعرف أنه خاطر غريب كما يبدو، ولكن حين يجعل الواحد يده في مثل ذلك المكان يوميا ولنصف ساعة كل يوم قد تخطر بباله أمور لن أخبرك عنها ولكن أيسرها أن يفعل ما فعلت.

أدركت وأنا أفعل ذلك بأن الأمر ممتع، وتناهت إلى ذهني لوحات "فرناندو بوتيرو" والتي كنت كلما وقعت عليها يراودني نفس السؤال: "أي متعة يجدها هذا الرسام في أجساد نساء بدينات؟".. لقد كانت تجربتي الغريبة مع زبونتي سببا وجيها



facebook.com/the.Boooks

ليجعلني أستكشف أغوار الحبّ الذُهني، الهلامي، الكابح للشهوة في الظاهر. حتى أنني لن أجد أي حرج الآن في الاعتراف أنه وبعد أسبوعين فقط من دفء خصرها والقرص المنتظم، بدأت أفهم في متعة بوتيرو، بدليل أن حصاني وبعد مرور هذا القدر اليسير من الوقت عاد إلى خلقه الأول. ولم يلبث أن مر أسبوعان آخران حتى بدأ يشعر حصاني بالرغبة في الصهيل. وما كنت لأسمح له بذلك لو لم يحدث معنا لاحقا شيء يشبه السحر. وقبل أن أتمادى في الحديث أكثر فلا بأس أن أقول لك أن اسم زبونتي الجديدة هو "لبنة". ولأن اسمها كذلك، فأحسب أنك أدركت الآن لمَ تلعثمتُ حين قالت لي امرأة القطار أن بمقدوري أن أسميها لبنة وأنني أعلم السبب. والذي لم يكن إلا ما حدث بيني وبين لبنة نهاية أول شهر أجّرتني فيه.



facebook.com/the.Boooks

## -3-

تابع قاسم:

كانت كعادتها جالسة بجواري، وكعادتها منذ ثلاثين يوما أيضا، فقد كانت يدي تمسك بمحدد السرعة تحت ردفها الهلامي الممتلئ. بدا لي يومها أنه ازداد ثقلا واتساعا حتى ابتلع يدي كاملة، بحيث لم أعد أشعر بأصابعي المتعرقة بفعل الحرّ..

أذكر اليوم جيدا. آخر يوم من شهر مارس.

ما أن بلغنا منزلها وتمكنت من إفلات يدي من تحتها، ابتسمتُ لها لتكون ابتسامتي مدخلا معقولا للحديث عن بقية أجرتي.

ابتسمت هي الأخرى، فبدا لي بأن وجهها ازداد دائرية عما هو في العادة. ولأول مرة لم أشعر بالقرف من التراكمات الشحمية التي جعلت وجنتيها تبدوان كنهدي صبية في الخامسة عشر.

لقد فكرت قبل ذلك بالطبع في كرم الطبيعة على تلك المرأة، ولكنه كان تفكيرا ساذجا حملني إلى اعتبارها مخلوقا لا



facebook.com/the.Boooks

متعة في مشاهدته ولا حتى في الحديث معه. ربما هذا ما جعلني طيلة ثلاثين يوما لا أحدثها في أي شيء. أعتقد بأنها فهمت صمتي على أنه تعبير على رغبتي في وضع حدود من الاحترام فيما بيننا. وهو فهم يمنح صاحبه تبريرا مقبولا لعدم قيامه بما كان يجب عليه القيام به.

كانت تملك عينين واسعتين برموش اصطناعية سوداء وحاجبين دقيقين. قلت "إنه الثلاثون من الشهر".

ردت وكأنها لم تفهم قصدي:

"وهو يوم ميلادي بالمناسبة".

أجبتها مبقيا على ابتسامتي: "كل عام وأنت بخير". ثم انحنيت نحوها وقبلتها قبلتين على خديها. شعرت وأنا أفعل ذلك بأن شفتيّ ترطبتا بعرقها المالح الممزوج بعطرها الفرنسي الفاخر. ومن دون مبالغة تبين لي بأن لبنة ارتقت في سلمي بدرجتين أو ثلاث، حتى بالكاد لم يعد يفصلها عن خانة البشر إلا قبلة ثالثة تأجّلت لحظتها بسبب كمّ الهراء الذي جعلته بيننا.

كان تفكيري مشوشا بسبب حاجتي الماسة إلى المال. ومن عادتي حين أكون كذلك أن أعطي هرموناتي إجازة، بحيث لا أشعر بالإثارة أو الرغبة في أي شيء. لكنني لحظة ما قبلتها خطر لي أن أدعوها لتناول فنجاني قهوة أو شاي. مهما يكن،



facebook.com/the.Boooks

فنحن بالغين، وسواء أكانت زبونتي أو صديقة سابقة لعبد الله، أو امرأة بدينة تكبرني أو أطول مني، فستبقى مسألة لقائنا مسألة تخص أشخاصا بالغين.

قالت حين عرضت عليها الأمر ألا مانع لديها، فأصدقاء عبد الله أصدقاؤها أيضا. واتفقنا على اللقاء في اليوم الموالي بعد خروجها من العمل. وهكذا التقينا كما اتفق.

شربنا القهوة ثم تعشينا في مطعم شواء يقع بمدخل بومرداس. فقد شرحت لي وبإسهاب قبلها بأنها تحب الدجاج المحمر بجلدته المقرمشة، وتركت لي حرية اختيار المطعم.

حرزت وأن أشاهدها تلتهم دجاجة ونصف أنها جاءت لموعدنا ببطن خاوٍ. كان منظرها كذلك مهيبا إلى أقصى حد، حتى أنني أعتقد أنه حري باللاهوتيين أن يدرجوه في محاضراتهم كلما تحدثوا عن الخشوع. فوقتما كانت تدس قطع الدجاج في فمها (الذي حين فتحته اتسع لربع دجاجة) تحلل وجودي معها حتى بدا لي أنني صرت لامرئيا تماما. وأحسب أن بقية من كانوا في المطعم (وقد كان مكتظا) ابتلعهم العدم أيضا وهي في خشوعها ذاك. وعلى عكس ما تعتقد فلم يحرجني هذا الموقف، فقد كان تفكيري ساعتها مشغولا بأمرين لا ثالث لهما: من منا سيدفع فاتورة المطعم، وهل ستكون بنفس الشراهة حين أضاجعها لاحقا.



facebook.com/the.Boooks

مع خروجنا من المطعم عرفت جواب السؤال الأول، والذي كان ببساطة نفس الجواب الذي عودتني عليه عاهراتي "أنت من يضاجع، فأنت إذن من يدفع". لقد كان جوابا قاسيا على جيبي، ولكن الأمل الذي كان يحدوني في أنها ستسلمني بقية أجري، قلل من حدة الألم إلى حد أن تحركت هرموناتي ونحن في السيارة ووجدت فرصة مواتية في سؤالها إن كانت ترغب في أن "ندردش" قليلا على انفراد.

أعجبني أنها لم تتصنع الغباء وقالت أن الأمر سيكون ممتعا، ولكن ليس بمقدورها المبيت خارجا.

هكذا توجهنا إلى الثنية، حيث ركنت سيارتي في المكان المخصص لي.

قالت بدهشة: "هل سنقوم بالأمر هنا؟".

ابتسمت لها غير آبه بسؤالها. كل ما فعلته أنني نزلت من السيارة وفتحت بابها الخلفي.

قلت لها:

"الأفضل أن تجلسي في الخلف".

امتثلت من دون أن تعلق، مستغرقة ما يجب من وقت للنزول من مقعدها، والجلوس في الخلف.

حين فعلت ذلك أدركت أنها بجسدها الضخم احتلت كل المكان حتى لم يعد يتسع لشخص آخر ولو كان بنحافتي.



facebook.com/the.Boooks

فكرت مليّا في الأمر، ورأيت أن اقتلاع المقاعد الأمامية مسألة لا تقبل التأجيل لمنحنا مزيدا من المكان. وهكذا فعلت وصعدت بدوري إلى السيارة بعد أن غطيت الزجاج بأوراق جريدة قديمة وجدتها بالداخل.

ما أن استويت في مكاني حتى سألتني:

"لمَ لم تأخذني إلى منزلك؟".

"لأن هذا منزلي". أجبت وأنا أحاول رصد ردة فعلها من ملامح وجهها، رغم أن ذلك بدا مستحيلا لبعض الثواني بسبب الظلمة التي ابتلعت الداخل بعد أن غطيت زجاج السيارة. أضفت وأنا أرى انكماش وجهها:

"لا أملك منزلا، كل ما أملكه هذه السيارة فهي سكني منذ سنوات".

شعرت وأنا أقول ذلك بيد الشفقة وقد مسحت على وجهها، ثم نفخت في حلقها تلك الجملة التي أثارتني بمجرد أن نطقت بها.. "تعال إليّ صغيري".

صغيرها.. بالفعل كنت صغيرها في كل شيء: في السن والحجم أيضا.

انتبهت لحظتها إلى أنها رفعت تنورتها فأبانت عن فخذين عظيمين ابتلعا المساحة التي يفترض أن تكون بينهما. تقدمت



facebook.com/the.Boooks

نحوها وباعدت بين ساقيها، وبالكاد تمكنت من رؤية ما بينهما. تأكدت حينها بأن جسدها المبارك بيد الطبيعة لا يؤمن بالأشياء الصغيرة حتى في تفاصيله الأكثر صغرا.

قلت لها:

"تفهمين بأن هناك طريقة واحدة للقيام بالأمر".

تنهدت وضحكت وهي تسوي جلستها بحيث ارتفع وركها، فقمت وباعدت بين ساقيها ما أمكنني وتمكنت أخيرا من بلوغ أعلاهما.

وحيث كنت، هَمسَت:

"دعني أفعل ذلك".

ثم أمسكتْ بذكري وأخذت تمسده برقة.

كانت تلك أول مرة أرى فيها يد امرأة تبتلع إيري كاملا في كف واحدة حتى بالكاد كنت أراه. ثم ما لبثت أن جعلت كمرته على باب كسها ونزعت يدها.

قالت: "لا تدخله مرة واحدة، وحين تفعل لا تنزعه حتى ننتهي".

حاولت أن أقبلها، فلم أكن حتى ذلك الوقت معتادا على المضاجعة من غير مقدمات. حتى أنني أدركت بفعل التجربة أنه من دونها لا أبقى مستثارا لوقت طويل. وهي حقيقة بالكاد قبلتها عاهراتي رغم أنهن في العادة لا يحبن ذلك من زبون.



facebook.com/the.Boooks

هكذا أخذت وقتي وأنا أحاول تقبيل ولعق رقبتها والتي ظهر لي ( بسبب ضخامتها) أنني قد أقضي الليل كله من دون أن أنتهي منها، إلا أن لبنة كانت تتجنب قبلاتي وتصرخ بأنها لا تحب هذا.

حاولت ألا أعبأ والتزمت جانبي من الصفقة، بحيث دفعت القطار برفق في النفق بعدما أصرت، وظني أنها ترغبه هكذا، ولكنني ما أن فعلت حتى صفعتني وصرخت بي "تنيك كالنقش".

أعدته حيث كان بكل قوة، وقد بدأ يتسرب إلي الشعور بالقرف. ليس منها بل مني أنا. حتى انتابني الوهن إلى درجة أنني لم أعد أشعر به داخلها، حتى تراخى واختفت رغبتي كأنها لم توجد قط.

وكما اتفق انفصلت عنها. لبست سروالي بأسرع ما أقدر من دون أن أجرأ على النظر صوبها. ثم ما لبثت أن سمعت شبه ضحكة تخرج من فمها الكريه أعقبتها "كنت أعلم.."..
وأطلقت ضحكة أخرى.

أعتقد أن كل كلمات الدنيا لن تكون قادرة على وصف ما شعرت به لحظتها. ولكن سأكتفي بالقول أنها أول وآخر مرة شعرت فيها بحقارتي. ومن ليلتها لم أر لبنة ولم أسع للقائها لأي سبب، حتى لأتقاضى بقية أجري.



facebook.com/the.Boooks

احتجت بعدها لسنتين كاملتين لأعيد ترويض حصاني، وفيهما أجهدت نفسي في تنظيف سيارتي ثلاث مرات في الأسبوع. فقد ملأتني مضاجعتي للبنة بقدر غير معقول من القذارة، جعلتني أتصور أنها تجسدت ماديا وملأت محيطي حتى فاض بها.

الآن تفهم لمَ ارتبكت حين أخبرتني امرأة القطار أن اسمها لبنة. يكفي هذا الاسم فقط ليجعلني أمقت كل النساء، ولولا أن حادثة القطار قد وقعت بالفعل قبل معرفتي لاسمها، لكنت وجدت مليون سبب يمنعني عن لقائها.

***

صحت محتجا وأنا أحاول كتم ضحكاتي. وكان النادل قد أحضر الحساب:

- ها هو الغذاء قد انتهى ولم نفرغ بعد قصتك، عوض أن تخبرني ما حدث بينك ولبنة الجديدة، توّهتني في ذكرياتك، ولا أحسب أن جلستنا في المقهى لاحقا ستجعلنا ننتهي من قصتك.

أجاب ساخرا:

- لن تنتهي بالطبع، لهذا سأقترح عليك عوض أن نتوجه إلى مقهى، نختار لنا حانة هادئة نشرب فيها كأسين. أعرف حانة قريبة من هنا.



facebook.com/the.Boooks

وجدت الاقتراح لائقا، فقد انقضت أشهر من دون أن أشرب.

عند خروجنا من المطعم سألته:

- بعيدا عن تفاصيل لقائك بلبنة في الفندق، ماذا حدث بعدها؟

أجاب:

- تقصد امرأة القطار. آه.. ألم أخبرك أن الحياة غير متوقعة دائما. فمساء ذلك اليوم لم يتأخر قطار السابعة وجاء في موعده.

جلست على مقعدي. في نفس المكان حيث اعتدت الجلوس كل يوم.

ثمة في الحياة أمور تستحق الانتظار. وهي في حياة كحياتي لا تزيد عن ثلاثة لا غير: اليوم الذي يدفع فيه زبائني ما عليهم، مجيء القطار وأخيرا امرأة أرغب فيها. باستثناء هذه فلا شيء يستحق أن أنتظر لأجله. حتى أنني وبمراجعة حياتي الشبيهة ببعضها لا أتذكر أنني انتظرت شيئا آخر.

قال لي عبد الله مرة بأن هذا ما يصنع سعادتي. وبالفعل فقد قضيت حياتي سعيدا بلا أمل ولا طموح ولا حتى أحلام. البساطة.. هذا ما على الحياة أن تكون عليه إذا رغبتَ في بلوغ السعادة.. على الأقل، هذا ما خلته وقتها.

أخرجت الهاتف من جيبي وظني أن لبنة ستهاتفني بعد



facebook.com/the.Boooks

حين. لكنها لم تفعل، فقد انقضى الطريق ولم يرن هاتفي.

لم يصدمني الأمر، حتى أنني لم آسف له. فكما قلت لك، طرحت الخيبة من حياتي يوم كفرت بالأمل. ثمة كلمات كثيرة شطبتها من حياتي ومن كلامي ومن تفكيري وأولها الخيبة.

وجدت زبائني في انتظاري خارج المحطة. أوصلتهم وركنت سيارتي في الحظيرة.

لقيني وجه الحارس بابتسامة قوّاد محترف. قال:

"عدت باكرا يا شيخ، لعل الفندق لم يعجبك".

ابتسمت له وحين بدا لي أنه سيقول شيئا آخر أجبته:

" لم يعجبني كأمك القحبة".

ضحك وانصرف وقال شيئا لم أهتم به لتلتقطه أذنيّ.

لم أكن راغبا في الأكل فلم أتعش. بقيت مستلقيا بداخل سيارتي حتى هدأ السير فخرجت منها.

فتحت صندوقها وأخرجت منه بطانية ولباس النوم، وفي داخل سيارتي غيرت ملابسي وفتحت الكرسي جوار مقعد السائق إلى أقصاه وتمدّدت منكمشا تحت البطانية.

أنزلتُ الزجاج بقدر يسمح بدخول الهواء وأشعلت سيجارة وأنا أتأمل هاتفي الجديد. ولأول مرة في حياتي شعرت بالأسى. ليس بسبب عدم قدوم لبنة بل لأن فرصة معرفة كيف عرفت اسمي وحكاية "لبنة البدينة" قد طارت. أما تفويت



facebook.com/the.Boooks

فرصة ممارسة الجنس معها فلم تشكل بالنسبة لي أي نوع من الأسى.

لقد تعلمت من تجاربي بأن ذهاب الرغبة لا يحتاج إلا ليد واحدة ولبعض اللعاب. الأكيد أن في فمي الكثير من الريق وأحمد الله على أنني خلقت سويا بيدين.

تخلصت من رغبتي في دقائق. لا أعتقد أن حارس الحظيرة بلغه ما صدر مني من أصوات وإلا لسمعت شيئا من تعليقاته الحمقاء.

لم أحتج بعدها إلى الكثير من القراءة لأشعر بالنعاس. هكذا أطبقت جفنيّ على أمل أن يبتلعني الظلام. وما كاد يفعل حتى استعادني النور مرة أخرى على رنة الهاتف.

نظرت إلى ساعتي كانت الثالثة صباحا.

"أنتِ؟" قلت متذمّرا. ثم قطعت الخط.

رنّ مجددا فعمدت إلى إغلاقه. لا يوجد كلام يستحق أن أضحّي من أجله بساعات رقادي.

منذ سنوات اختل توازن نومي. لم أعد أنام إلا أربع ساعات على أقصى تقدير. أجبرني أرقي أن أعيش ساعات من الوعي غير المفيد. وأنا على يقين أن تلك الساعات من الاستيقاظ الإجباري تشكل هامش حياة لم أعتبره جزءا من حياتي قطّ، فأنا لست مخلوقا ليليا. ولطالما أفزعتني مخلوقات الليل.



facebook.com/the.Boooks

وبينما كنت أحاول العودة إلى هدوئي ليضمني الرقاد سمعت طرقا على باب السيارة. فكرت لحظتها أنه الحارس، إلا أنني حين فتحت الباب وكانت على لساني أقذر شتيمة يمكن أن يتفوه بها أحد، بهتُّ وأنا أرى لبنة واقفة ومعها حارس الحظيرة.

قال الأبله مبتسما:

"أتاك ضيف يا شيخ".

وحين وجدت بعض الكلمات لأقولها انسحب من غير أن تنسحب رائحته النتنة التي تركها خلفه. أعتقد أنها كانت مزيجا كريها بين البول والعرق وسجائر رخيصة.

قلت مشدوها: تفضلي.

وتزحزحتُ من مكاني تاركا لها المقعد بجوار السائق.

قالت وهي تجلس مغلقة الباب:

"ربما أزعجتك ولكن كان بيننا موعد أتذكر؟".

أجبتها ساخرا:

"يبدو بأنك تعيشين بتوقيت قارة أخرى. أحسب بأن موعدنا كان قبل ساعات".

ضحكت وأخذت تنزع معطفها.

قلت:

"مهما يكن، أهلا بك في شقتي".



facebook.com/the.Boooks

لم تجب ونزعت حذاءها وألقته على المقعد الخلفي. ثم أغمضت عينيها وهي تقول: "أتمنى ألا يزعجك وجودي. ننام قليلا وبعدها نتحدث".

وما هي إلا لحظات حتى غطّت في النوم.

حاولتُ ساعتها ألا أنام لأستمتع لأطول وقت بمنظرها وهي كذلك ولكن في النهاية غلبني النعاس فنمت. وحين استيقظت -وكانت الخامسة وعشر دقائق- لم أجدها.

أخبرني حارس الحظيرة بأن سيارة جاءت وأقلتها من هنا. حين وصفها لي شعرت بالرغبة في التبول، وفعلا فعلت ذلك ولكن على سيارتي.

بعدها، قضيت ثلاثة أسابيع من دون أن يرن هاتفي. وكنت كلما حاولت الاتصال بها على الرقم الذي كلّمتني به أجد الخط مغلقا. أعتقد بأن رغبتي في نسيانها جعلتني أستأجر خلال تلك المدة سبع عاهرات. لم تنجح ولا واحدة في جعلي أتوهم بأنها لبنة.

في ذلك الوقت لم أدرك ما أصابني، ولكنني اليوم أقول بلا أدنى شك أنني وقعت في حبّ لبنة. بالطبع لم أجرأ ساعتها على وصفه كذلك ولكنه كان حبا روّضني في خريف عمري.



facebook.com/the.Boooks

# القسم الثاني

وفيه:

ما قال الراهب لعبد الله، وعن كيف توصف السعادة على أنها ابتكار.. وتصوير صادق لحب المتصوفة...



facebook.com/the.Boooks

*facebook.com/the.Boooks*

## -1-

قلت لقاسم ونحن نعبر الطريق إلى حانة"مون فيلاج":

- ألا يحدث لك أحيانا حين تكون في أماكن كهذه أن تتساءل: ما الذي تغير؟

- لا أعرف ما تقصد بالضبط، أية أماكن وأي شيء عليه أن يتغير؟

صمتّ، فلم أشأ أن أخوض في هواجس تكبت على صدري بين الحين والآخر. ليست انشغالا محددا، ولكنها أسئلة تراودني لا أحسن طرحها.

قلت:

- لا شيء محدد يا صديقي. تخاريف رجل عجوز.

ثم سحبت الباب ودخلنا الحانة. كانت كئيبة كعادتها، مظلمة ولكنها تروق لي.

ذكرت ذلك لقاسم وظني أنه سيعلق لكنه لم يفعل.

أضفت:

- لم تكن على هذا النحو دائما.



facebook.com/the.Boooks

علق مبتسما:

- أكيد. أحسب كل حانات البلد مثلها، ولكن الأماكن كالأشخاص، بمجرد أن تفتقد للمتعة يملؤها الظلام. تصبح فريسة للبؤس وأحيانا تغدو متاحف للذكريات.

هززت رأسي موافقا. أما قاسم فأشار للنادل ليحضر لنا قارورة ويسكي وبعض العبوات من البيرة. وقبل أن أقول شيئا أضاف:

- لا أسعى للثمالة ولكنني لا أحب الشرب من قارورة بدأها غيري.

وفي اللحظة التي كنت أستعد لأطلب منه أن يستمر في سرد قصته، قال:

- أتعلم أنني لم أشرب إلا متأخرا. أول كأس شربتها مع لبنة. من المذهل ما تستطيع أن تقنعك به امرأة تحبها.
- تقصد امرأة القطار؟
- نعم. ولكن لماذا تصر كلما تحدثت عنها على وصفها بامرأة القطار. أخبرتك أن اسمها لبنة؟
- أعرف ولكن هذا الاسم لا يغريني. بيني وبينك أتوقع أن تقول لي لاحقا أنه لم يكن اسمها الحقيقي.

ابتسم قاسم. من دون أن يعلق.



facebook.com/the.Boooks

تابعت:

- هل أحببتها حقا؟

أجاب:

- بلا شك، ولكن ليس بسبب ما حدث بيننا في القطار. أنت أعقل من أن أوهمك بأن الجنس يمكن أن يكون سببا في الحب. أحببتها لأن الحياة التي عشتها قبلها لم تكن شيئا. أنا ولدت لحظة دخلت حياتي، ولم أبدأ في السير إلا حين عادت إليها بعد سنة كاملة منذ لقائنا في الحظيرة.

تنهد لحظة ثم أخذ رشفة من عبوة البيرة. قال من دون مناسبة:

- أحبها هكذا، لا باردة ولا ساخنة.

أحببت أن أضفي جوا من المرح فقلت:

- وأنا أيضا أحبها هكذا، لا باردة ولا شبقة.

ضحك قاسم متابعا:

- رغم أن سنوات كثيرة قد مضت على وفاة عبد الله، إلا أن مروره بحياتي كان لهدف. أعترف بالطبع أنه كان صاحب الفضل في عصاميتي، ولكن وجوده بحياتي كان أهم من مجرد لغات تعلمتها أو مئات الكتب التي قرأتها بفضله. أحيانا أفكر أنه كان نبيا لم



facebook.com/the.Boooks

يرسله الله إلا لي، وأنني كنت كتابه أو هكذا أحسبني صرت بعد رحيله. فحين عاد من براغ ليستقر نهائيا في الجزائر، راودته مشاعر قوية بخصوص موته. لقد كانت تجربته مع راهب هندوسي تعرف عليه هناك قاسية إلى درجة أن حياته الموسوسة بالأسئلة، المحمولة على راح الشك تداعت مرة واحدة بيقين واحد لا غير.. "ليس ثمة من قسوة أعظم من قسوة اليقين"، قال لي ذلك أياما فقط من تعارفنا.

كنت وقتذاك مشفقا على عقلي من أن تلج إليه عُشر الأفكار التي اعتمرت مخ عبد الله. ومع ذلك كان يستهويني فكره الموسوعي، إلا إذا بدأ الكلام عن الموت.

ففي العشرين من العمر، كان الحديث عن النهاية – بالنسبة لي– مضيعة للوقت. أحسب أن لذلك علاقة بالفطرة البشرية والتي تقتضي بأن يتجاهل المستهل للحياة فكرة الموت ليتمكن من العيش بنحو صحيح، فالتفكير في ممارسة الحياة يجعل معالجة مسألة وإن كانت بغاية الأهمية كحتمية الموت قابلة للتأجيل. في النهاية، وحده المنطق المثالي ما يجعلنا نتوهم بأن بمقدورنا موازنة البداية والنهاية. والمثالية وحدها أيضا ما يدفعنا إلى إبداء الإعجاب بكل كلام يدعو إلى ذلك.



facebook.com/the.Boooks

فقبل أربع سنوات من عودة عبد الله إلى البلد، شدته رغبة غريبة في زيارة الهند. فيها التقى بذلك الراهب. رجل لن أصفه لك بأي نحو، فقد تكون مضيعة للوقت أن أهدر الكلمات في وصفه ما دمتَ قادرا على تخيل شكله وملامحه مما قد تكون شاهدت من أفلام أو حتى مما قد قرأته هنا وهناك. ومع هذا فلا بأس أن أقول لك أنهما التقيا عند نهر "كانغ"، النهر الذي على المؤمن الحق أن يغتسل في مائه القذر ثلاث مرات لتغتسل روحه من قذارتها. وبمجرد أن يفعل تتطهر روحه من كل الخطايا ولا بأس بعدها أن يلتقط جسده ما شاءت له القذارة أن يلتقط من أمراض.

أعتقد بأن فكرة اغتسال الجسد لتتطهر الروح فكرة تقاطعت فيها معظم الديانات. في الإسلام تتطهر الروح بعد الطهارة الكبرى وإعلان التوبة، وفي المسيحية لا يُعمّد الصبي إلا في الماء، وفي الهندوسية لا طهارة بغير اغتسال في النهر المقدس "كانغ"... قال لي أحدهم بأن تقاطع الديانات في بعض الشعائر والقصص أكبر دليل على أنها من مصدر واحد. وهو رأي كان من الممكن أن أعتمده لو لم يحدث أن مرّ عبد الله في حياتي. فكما قلت، فقد استمتع عبد الله وهو في براغ بنوعين من العلاقات. إحداهما علاقته بالله.

أخبرتك سابقا بنظرته لله. لم تكن تختلف كثيرا عن نظرة المتصوفة. لقد كان الحبّ بالنسبة لعبد الله المبدأ الثابت لكل



facebook.com/the.Boooks

معالم الكون. حتى أنني لا أكاد أحصي الآن كم من ظاهرة شرحها عبد الله مستعينا بالحب.

سألته ذات مرة: "أيها أكثر نجاسة: البول، البراز أم المني؟". رد من دون تفكير: "البراز ثم البول". قلت مجددا: "ولماذا يفرض الإسلام الاغتسال بعد القذف ولا يوجبه بعد التبول والتبرز؟".

لم يكن سؤالي بريئا. فوقتها بدأتُ رحلة غبية لاكتشاف الحقيقة. وكأي رحّالة من هذا النوع فقد قرأت عددا من كتب اللادينيين ممن يدحضون فكرة الدين بكل وسائل العقل.

أصفُ الآن تلك الرحلة بالغبية لأنها كذلك. ولأنني أيضا سأحكي لك لاحقا ما يجعلك تفهم السبب الذي يجعل كل بحث عن الحقيقة غير مجد بأي نحو.

حين سألت عبد الله ذلك ابتسم. أدركتُ لحظتها أن سؤالي هذا وإن بدا غاية في الخبث، لم يكن بالنسبة إليه إلا سؤالا ساذجا امتلك إجابته منذ أمد. في الحقيقة لم يخالجني أي شك في قدرة عبد الله على معرفة حقائق لا تبدو في متناول أحد، ولكنني وهو يجيبني أدركت كم شاسعة هوّة العقل التي تفصلني عنه.

قال مبقيا على ابتسامته:

"هذا لأن الله يحبنا حبا لا يمكن لأحد تصوره".

غالبني الضحك ساعتها كالأحمق، وأنا أحسب بأنه ينكّت لا غير.



facebook.com/the.Boooks

قلت:

"وما علاقة الأمر بالحب؟".

أجاب:

"تخيل بأنك تحب امرأة بجنون، تحبها بنحو لا طاقة لك فيه إلا أن تغفر لها كل خياناتها لك. تخيل أنك في سبيل أن تضمن حبها لك تكون مستعدا على بذل أي شيء من أجلها".

قلت:

"صعب أن أتخيل ذلك ولكن لا بأس".

أضاف:

"ستكون إذا بلغت هذه الدرجة من العشق قادرا على مسامحتها عن كل آثامها أليس كذلك"؟.. أجبت:

"بلى".

قال:

"ولكن هل يمكن أن تغفر لها ألا تعترف بك وبحبك لها".

قلت:

"مستحيل".

تابع:

أيمكن أن تغفر لها وقوعها في حب سواك؟.

أجبت:



facebook.com/the.Boooks

"ربما أغفر لها زلاتها أو حتى علاقة عابرة، ولكن أن تحب غيري فلا أعتقد".

قال مبتسما:

"كذلك الله. يغفر لك كل ذنوبك إلا أن تحب سواه كما تحبه أو لا تعترف به حبيبا لك".

علقت:

"معقول.. ولكن أي علاقة لهذا بسؤالي؟".

أجاب:

"كل العلاقة. لا أحد فينا مهما استراح في تبوله أو تغوطه يمكنه أن يشعر باللذة حين قيامه بهما. قاطعته ضاحكا:

"صحيح، وإلا لما خرج أحد من المراحيض".

ضحك متابعا:

"لكنه يشعر باللذة وهو يجامع. وهو في ذلك قد يستلذ الأمر إلى درجة أن يعيش حالة خشوع لا يخرج منها إلا ببلوغ الذروة. إن الله يحبنا وبسبب هذا الحب يشعر بالغيرة من خشوع المضاجعة، لهذا يعاقبنا بالاغتسال. لا علاقة بنجاسة المني في فرضه للاغتسال بل بحبه لنا لا غير".

لطالما امتلك عبد الله طريقة خاصة في تفسير الأمور. ربما لهذا وجدت فيه المعلم الذي رغبت فيه. أعتقد بأن أي واحد كان ليرغب في وجود رجل كعبد الله في حياته، على



facebook.com/the.Boooks

الرغم من جهلي إن كنت بوجودي في حياته قد أضفت إليه أي شيء.

أحيانا أفكر بأنه اختارني صديقا لأنه أدرك أنني كنت وقتما التقينا ورقة بيضاء.. سجلا فارغا يمكنه أن يسجل فيه ما يريد. أو ربما لأنني لم أكن أملك من العقل والتجربة ما يجعلني أضيّع وقته في الجدال.

قال لي مرة بأنه قرر العودة إلى البلد ليتمكن من استغلال الهامش المتبقي من حياته.

الهامش...

هكذا وصف الحياة في هذا البلد. احتجت لكل هذا القدر من العمر لأكتشف ذلك بنفسي، رغم أنني اخترت الهامش من غير قصد. لم يبق عبد الله في حياة الهامش إلا تلك السنين الأخيرة من حياته. أما أنا فما زلت أعيش فيه.

وفي تلك السنوات التي جمعتنا، تعلمت منه كيف يمكن أن تستمتع بحياة لا متعة فيها. لقد جعلني أفكر في حياتي على أنها قد لا تدوم لأكثر من يوم واحد. هل بعدها يمكن للمرء أن يفكر في غد يعلم أنه لن يأتي. بالطبع لن يمكنه ذلك. كل ما يستطيعه، هو أن يعيش يومه بكل ما يمنح له هذا اليوم.



facebook.com/the.Boooks

قاطعته:

- أقول بهذا المنطق طيلة حياتي.

تابع قاسم:

- وفي منطق كهذا، تصبح الأحلام مجرد مضيعة للوقت. الطموح أيضا يصبح هدرا للإمكانات المتاحة.

أعتقد أن صداقتي لعبد الله جعلتني أكسب الكثير من الوقت. لولاه لضيعت العديد من الفرص بداعي الخوف أو التفكير أو حتى اللاجدوى.

في النهاية، لم يحظ عبد الله بما حظيت به. لقد احتاج عمرا كاملا ليبلغ هذه النتيجة. ولولا سفره إلى الهند وما حدث لاحقا بعد لقائه بذلك الراهب لكان أهدر حتى تلك السنوات الخمس التي قضيناه معا. ولكان قد مات وهو يبحث عن شيء طالما كان عنده.

قاطعته:

- لا تغضب، ولكنني أعتقد أن فكرة تقديسك لهذا الرجل، تجعل منك إنسانا من الدرجة الثانية.
- ليس تقديسا، بل مجرد اعتراف لفضله.
- تدرك الفرق بين الأمرين. أنت تجره في حديثك جرا، لتبرر أفعالا قمت بها وحدك وحياة عشتها كما أردت أنت لا هو. مع احترامي له أو لغيره، لا يوجد بشري يستحق التقديس حتى الأنبياء.



facebook.com/the.Boooks

ردّ بعصبية:

- هـذا رأيـك مـع أنـني لا أسـعى لتقديسـه، والامتنـان لأحد لا يجعل مني إنسانا من درجة ثانية. ألا تشعر أننـا في هـذا البلـد نعـاني مـن حساسـية مفرطـة نحـو الامتنان؟.

ضحكت، فالحقيقة عكس ذلك تماما. أجبته:

- بـل علينـا أن نكتسـب مناعـة ضـدها يـا صـديقي. ألا تـرى أن كـل مآسـينا سببها الامتنـان، وبسـببها قدسـنا من لا يستحق وألّهناهم أيضا؟.

بالفعـل، وحـده الامتنـان مـا جعلنـا عبـدة لماضـينا. جعلنـا نرضخ لسلطة لم نرضها يوما. حولنا إلى شعب أحمق رضي بأن يقطع رأسه من أجل من اعتبرهم ثوارا حرروه ليجعلهم محله. هـو نفسـه الـذي مسـخنا إلى ثـور لا يجـد أي سـعادة بعيـدا عـن الرحـى. بالامتنـان قطعنـا ألسـننا، ومـن أجلـه حبسـنا أصـواتنا في حناجرنا. ولئلا يقال عنا شعب غير ممتن، منحنا "كمشة" منا الحق الذي يدعونه لأنفسهم في كونهم من حررنا.

بسبب الامتنان قبل كل واحد منا أن يعامل كمواطن من درجة ثانية: هؤلاء مجاهدون، وهؤلاء شهداء، وهؤلاء أبناؤهم. أما نحن فأبناء الشعب فحسب. أبناء شعب لم يستشهد ولم يجاهد.. أبناء قحاب وحركى..



facebook.com/the.Boooks

أراد قاسم أن يستمر في مجادلتي، ولكنني رجوته أن يستمر في قصته. لم أعد منذ أعوام أحب الخوض في السياسة، وما عاد التاريخ يثيرني في شيء، فمع الوقت أدركت أنهما ليسا إلا ريحا كريهة من الأسلم أن ندعها تخرج من أدبارنا، عوض حبسها في أبداننا السقيمة.

قال بعد أن ملأ كأسي:

- أخبرني عبد الله، أنه قبل سنة من سفره إلى الهند، لم يكن قد استقر على دين بعد. ومع أنه اعتاد أن يقول لنفسه وأصحابه أنه ملحد، إلا أنه بينه وبين نفسه كان يشعر بالخواء. فلطالما آمن عبد الله بأن الإنسان بقدر ما يبتعد عن الدين وينأى عن الله، بقدر ما يزداد طوله ليبلغ آفاقا من التفكير ما كان ليبلغها لو كان مؤمنا. إلا أن المفارقة أنه كلما ازداد طولا ازداد الفراغ في داخله، تماما كقصب البانبو الذي لن يهلكه في النهاية إلا الفراغ الذي سمح له بالحياة والنمو ذات يوم.

هذا الفراغ جعله يبحث عن عقيدة، فوحدها كانت قادرة على إنقاذه من الهلاك، على الأقل كان بوسعها أن تمنح هلاكه اسما آخر غير الاندثار الذي شعر أنه متوجه إليه.



facebook.com/the.Boooks

حينها نظر إليّ قاسم مبتسما:

- أنت مثله في هذا، فرغم ادعائك أنك ترحب بالموت، يسكنك هاجس الاندثار.
- ومن لا يخشاه ما دام مصيرا مشتركا للجميع. هو أحد اليقينين وآخر المصائر.
- الاندثار خيار صديقي، ليس موتا ولا ميلادا. ليس بداية ولا هو نهاية. خيار كالحياة.

قلت وظني أن الرجل بدأ يهلوس:

- هذه أول مرة أسمع أن الاندثار لا يعني النهاية والموت، وأن الحياة خيار.

ضحك قاسم:

- أرأيت جدوى أن يمر بحياتك رجل كعبد الله طرشي؟.

تابع:

- أنت تفكر في الوجود على أنه حيز حدّاه ميلاد وموت، فليس ثمة من شيء إلا العدم، قبل الميلاد وبعد الموت. لهذا تترادف في ذهنك البداية مع الميلاد، وتتطابق النهاية مع الموت. ولأن الأمر كذلك، تعتقد أن السير صوب الموت هو سير نحو النهاية، في اتجاه العدم. بهذا يصبح الموت تقريرا عن النهاية التي تعبر بلا شك عن الاندثار والتلاشي. ولكن ماذا لو لم يحدّ الوجود شيء على الإطلاق؟..



facebook.com/the.Boooks

قلتُ:

- أنت تراهن على افتراض لا يقين فيه.
- أما أنت، فتراهن على يقين لم يشكله غير الافتراض. ثم قل لي: ما هو العدم في النهاية؟ أهو عالم أم مكان أم زمان، أم مجرد مركز صفري؟ لأنه لو كان شيئا من ذلك كله لامتلك قيمة بذاته، تجعله يتعارض مع ماهيته. في رأيي، العدم مجرد مفهوم أوجده الإنسان ليبرر عجزه في الخوض عما يُعجز عقله. محاولة للتهرب من حقيقة أنه كائن أدنى، ومهما بلغ من عقل، فسيظل مهووسا بحقيقة أن تطوره توقف بمجرد أن أصبح بشريا ولا مجال ليتطور أكثر. ملايير السنين التي فصلته عن الدودة التي كانها، ملأته دودا يلتهم روحه حتى أفنتها، ليصبح كائنا مغرورا، خاويا من الداخل، حتى تصور أنه لم يعد يفصله عن الله إلا المزيد من التطور. أليس من الغباء أن يفقد الإنسان من أجل أن يصبح الله، أكثر ما كان يقربه منه.. أن يفقد روحه؟

صمتّ، فلم يكن ثمة من جواب لسؤاله هذا غير الصمت.

تابع:

- الاندثار الذي كان يقصده عبد الله، هو التواجد في الزاوية العمياء من الحياة. أن تكون حيا بجسدك من



facebook.com/the.Boooks

غير أن تمسح يد الحياة على روحك، هذا الذي كان يخشاه حين أدرك الخواء الذي كان يملؤه. لكنه قبل أن يموت وجد خلاصه بمجرد أن اختار الحياة، بمجرد أن أحب. أما أنت فتدّعي أنك عشت حياتك بلا حب، معتقدا أنه لم يكن ضروريا فيها.

أنت بذلك يا صديقي قررت ألا تظل حيا، اكتفيت بالبقاء على قيد الحياة فحسب. اخترت التواجد في تلك الزاوية العمياء المظلمة من الوجود. الإنسان "الزامبي" ليس اختراعا روائيا، بل واقعي أقدم عليه الإنسان المتجرد من روحه، المؤمن بأنه مجرد "أناتوميا": لحم، دم وعظام.. الحياة خيار وليست واقعا يجريه الميلاد ويشطبه الموت.

«غريبة هي الحقائق التي تجري على ألسن الأطفال والمجانين والسكارى.

غريبة هي الجرأة التي يستطيع أن يضفيها النقص على الكمال»

فكرت في ذلك وأنا أصغي لقاسم.. قاسم ( الآخر) غير اللبق. غير المهتم بمشاعر نديمه وهو يعلن موته الروحي.

عبوتان من البيرة وثلاثة كؤوس من الويسكي، سمحت لقاسم بتجاوز الخط الرفيع بين اللباقة والنفاق. مكّنته من التوقف عند ما يعتبر حقائق ليلقيها على وجهي.. أنا الرجل



facebook.com/the.Boooks

الميت فعلا. أنا الطفل الذي اعتاد تعليق مآسيه على علّاقة أبيه. أنا الرافض لفكرة الحياة الأخرى، لا لإيماني الساذج بالعدم، بل لخوفي من أن تكون تلك شبيهة بحياتي في هذا الوجود.. شبيهة بحياة البقاء على قيد الحياة.

في تلك اللحظة تعرّيت من جسدي، اعتراني شعور هائل بالخوف. الجدار الذي كان يفصلني عن الغد تهدّم بمعول الاعتراف. بكلمات بطيئة تخرج من فم رجل عجوز تمكن مني، لأجد نفسي مجبرا على مواجهة نفسي بنفسي.. يا إلهي أيعقل أنني بخياري اخترت الفناء ولم تجبرني عليه مشيئتك؟.. أأكون الآثم الوحيد، وبمفردي سيّرت حياتي إلى العبث؟

على خط النهاية، أو حين تشعر أنك على خطها، تصبح مواجهة الذات شبيهة بالمحاكمة، ويغدو الاعتراف قرارا صادما بوجوب الانتحار. فبمجرد الوصول إلى خط النهاية، تنحسر مساحة الماضي لتستحيل العودة إليه رغبة في تصحيح ما يجب تصحيحه.

تنهدت وفي رأسي كل ذلك. شعرت بضرورة أن أسأل قاسم "ما العمل؟"، ولكني عوض ذلك، مسحتُ الحيرة من على وجهي، مؤجلا السؤال إلى حين أختلي بنفسي وأطرحه عليها.

قلت بفم مرّ، تمططت شفتاه لتشكّل ابتسامة، رغبة في الاحتيال على الحقيقة:



facebook.com/the.Boooks

الآن تأكدت من صدقك حين أخبرتني أنك لم تجرب الخمر إلا متأخرا.. أبهذه السرعة ثملت؟.

ضحك قاسم مشعلا سيجارة.

كان كلما شدّ نفسا تأملها بعينين كدت أقول أنهما كانتا تدمعان. وإذ ذاك ضمنا صمت رهيب، وفيه شعرت بشروده يزداد ضراوة حتى بدا لي أنه في عالم آخر.

لم أكن راغبا في قول شيء، فأحيانا يملؤك السكون ضجيجا بحيث تخال أن لا كلام ولا صراخ سينفلت منه.

أعتقد أننا بقينا ساعة من غير أن نتحدث. انشغل قاسم بشروده، وحاولت أنا التعلق بأي صوت أو وجه في الحانة. لم أنجح في تصيّد كلمات من همس الجالسين في الحانة، وعميت عن أي وجه يجعلني أتعلق بصاحبه.

كل من كان في "مون فيلاج" اثنا عشرة رجلاً ولا امرأة بينهم. جالسون بوجوه مظلمة ركنت الكآبة في مكان أكثر ظلمة في عيونهم، وهم يتحدثون همسا بأصوات منهكة بالكاد تسمع.

كان عالما للرجال.. كان عالما مقفرا، تعيسا للغاية.

تقدّم النادل منا ليسألنا هل نرغب في شيء آخر، فأشار إليه قاسم برفع يده في السماء ليفهم أننا لا نرغب في مشاريب أخرى. فهمت بدوري أن تلك كانت إشارته لي للانصراف.



facebook.com/the.Boooks

اقترحت ونحن نهم بالخروج أن نشرب فنجاني قهوة تعديلا للمزاج. وافق قاسم محركا رأسه من دون أن ينبس بكلمة.

بالنسبة إليّ، البكم الذي أصاب قاسم على حين غرة جعلني أفكر في تلك المصادفة الغريبة التي جعلتنا نلتقي، ونبدأ حديثا بدا كالهذر في البداية لينتهي إلى جلسات من الكشف والتعري.

ابتسمت وأنا أتمثل نفوري منه في البداية، وكيف تحول إلى رغبة ملحة الآن في معرفة المزيد من قصته.

كنا قد بلغنا "السكوار" حين رغبت بشدة في كسر جدار الصمت الذي أصبح بيننا. كانت فكرتي أن نسير أكبر قدر ممكن تحريكا للدم في ساقيّ. هكذا بدت مقهى "التلمساني" بساحة الشهداء خيارا معقولا لكلينا: أنا من أجل دورة دمي، وقاسم من أجل أن يستفيق من شروده أو سكرته.

قلت ونحن نسير ببطء:

- أين كنا؟

نظر صوبي وتمتم:

- هل يهمّ ذلك فعلا؟

ألححت وقد أمسكته من ذراعه:

- بالطبع، فأنا مهتم بمعرفة بقية القصة، لا لأنها مهمة أو لكونك ممتعا. بل لأرى فقط إن كنت قادرا على رفع التحدي.



facebook.com/the.Boooks

ابتسم قاسم من غير أن يقول شيئا.

أضفت ساخرا:

- أقصد أن تقنعني بأن ذلك الشيء.. أووه ما اسمه.. نعم الحب ضروري في حياتي.

حينها ضحك قاسم وقال:

- حياتك أنت؟.. ألم تقل أنك انتهيت ولا تفعل منذ عشرين سنة إلا انتظار الموت.

جعلته يتوقف عن المشي وواجهته وأنا أحاول أن أشير إلى فمي. ضحك مجددا:

- ما به فمك أيها الخرف.

- ألا ترى شيئا.. بالله عليك أنظر إنني أتنفس... يا إلهي أنا حيّ.

ثم أخذت أصدر صوتا لشهيقي وزفيري، وقاسم ينظر إليّ ضاحكا.

قال:

- في النهاية أنت من ثمل وليس أنا.

واستمر في الضحك، وقد أخذتني الغبطة أنني تمكنت بمزاحي أن أخرجه من شروده.

قال:

- قضى عبد الله أشهرا في الهند. وفي تلك الفترة حاول دراسة كل ما أمكنه عن الهندوسية، وحين انتهى رأى



facebook.com/the.Boooks

أنــه لا بــد إذا أراد أن يعــرف حقيقتهــا، ألا يكتفــي بدراستها فحسب. لقد كان موقنا بأن ممارسة طقوسها تجعله يدخل في حالة من الإيمان المؤقت يمنحه القدرة على رؤية الحقيقة. أعتقد أن الفراغ الذي كان في داخله أوهمه بأن الإيمان شكل من القرار يمكن أن يتخذه المرء بناء على تجارب عقلية، وفي هذا كان مخطئا. لقد كان ذلك شبيه بكل تلك الكتب السخيفة التي تحاول أن تثبّت الإيمان بالحديث عن إعجاز هذا الدين أو ذاك علميا أو لغويا أو لست أدري. أليس من السخيف أن تحاول إقناع العقل في مسألة لا تخص إلا القلب. ثم أي دين يمكنه الصمود أمام امتحانات العقل، ليأخذنا الغرور ونعرضه على محاكم المنطق؟

هكذا قرر أن يغتسل في نهر كانغ، وهناك التقى بذلك الراهب.

قال لي عبد الله، أنه بمجرد أن وصل إلى هناك. تقدم منه الراهب مبتسما. سلم عليه وأخذه في حضنه، ليهمس له "لا تفعل".

بدا الأمر غريبا أن يطلب منه عدم الدخول إلى النهر الذي لم يعد مزارا للمؤمنين فحسب، فبالكاد تجد سائحا في الهند لم يغتسل في مائه.

سأله عبد الله: لم؟



facebook.com/the.Boooks

أجابه الراهب من غير لباقة:

- لأنك تنافق لا غير.

شعر عبد الله بالمهانة وهو يشاهد العشرات حوله يستعدون لدخول النهر من غير أن يوقفهم أحد. قال محاولا ضبط نفسه:

- وكيف علمت؟

- لأنني أعلم فحسب. ولكنني لا أمنعك من دخول النهر فلا حاجة لك به.

حاول عبد الله تلطيف الجو فقال ساخرا:

- هل تخشى إن دخلت النهر أن أعلم مثلك.

لم يثر ذلك حفيظة الراهب وأجاب من غير انفعال:

- بل لأنني أخشى عليك إن دخلته ألا تخرج منه أبدا.

- أتخشى عليّ من الغرق؟!

- لا، لن تغرق ولكن قد لا تخرج منه.

كان جواب الراهب غامضا إلى حد أن أثار فضول عبد الله، فلطالما استحلى الخوض في الغموض.

سأله مجددا:

- وما يجدر بي أن أفعل الآن.

أجابه مبقيا على ابتسامته على وجهه:

- لا شيء محدد، فقد تقرر كل شيء بالنسبة لك، تماما كما تقررت حيواتنا جميعا.



facebook.com/the.Boooks

- وما الذي تقرر بالتحديد؟

ضحك الراهب ودعاه للجلوس. قال:

- أتملك أن تملأ قارورة ممتلئة؟

أجابه عبد الله ضاحكا:

- وعلام أملؤها وهي ممتلئة؟

- إذن فلا حاجة لك بالتواجد هنا.

- في هذا أنت مخطئ..

ثم راح يحدثه عن إلحاده وشعوره الدائم بالخواء، وحاجته المزمنة إلى اكتشاف الحقيقة.

قال له الراهب بعد أن انتهى:

- لا يجدر بالإنسان أن يبحث عن أمر لصيق به منذ خلق. لا حاجة لك أن تبحث عن الله ما دام الله فيك.

تابع وهو يشير إلى المغتسلين في النهر:

- إنهم لا يختلفون عنك. الفرق الوحيد أنهم يفترضون أن الطريق إلى الله يكون عبر ما يفعلونه، تماما مثلما يعتقد المسيحيون والمسلمون واليهود. جميعنا نعيش افتراضا في أن الطريق إلى الله يكون عبر طقوسنا، رغم أننا لا نحتاج إلى سلك طريق نحو الله ما دام فينا. ولكن لا بأس أن نفعل ذلك، رغم أن ذلك نوع من عدم الثقة في الله. نعتقد أن الله يشبهنا. نؤمن أن حبه لنا قد يقارن بحبّنا له ولبعضنا. لا يحتاج الله لمعرفة



facebook.com/the.Boooks

حبك له أو ما قد تقوله فيه أو له، ولا يزداد حبه بحسب هداياك وغزلك فيه. هو يعلم فحسب.

علّق عبد الله:

- ولماذا إذن في كل دين طقوس إن لم تكن هي الوسيلة إلى الله؟
- وكأنك تسألني لماذا نتزين حين نرغب في لقاء حبيب؟ لا نفعل ذلك رغبة في إرضائه بل للحصول على حالة من الرضى الذاتي، يخلق فينا تلك الطمأنينة التي تجعلنا قادرين على مواجهة الخوف منه.

تابع:

- لذلك لا أرغب في أن تضيع وقتك في ملاحقة ما تسميه الحقيقة، لا تحتاج لتؤمن بالله لأنه فيك. مجرد شعورك بالخواء جعلك تمتلئ. بحثك في النهاية ليس عن الحقيقة ولا عن الله، بل كان عن طقوس يمكنك ممارستها، وهذه لا تحتاج إلى بحث فكلها سواء. أما إذا أصريت، فاختر أي دين تشاء، فكلها سواء ولا أفضلية بينها على الإطلاق.
- لا أفضلية؟
- لم يوجد الله الدين رغبة في جعله الأولى. ولا ليختلف أصحابه عن سواهم ليصبحوا شعبا مختارا، أو مُلّاكا للحقيقة، ولا لأن ما سبق من ديانات لم يعد صالحا،



facebook.com/the.Boooks

بل رغبة في إنقاذ الإنسان من الهلاك.. إنقاذه من غروره وإرادته الدائمة في أن يصبح هو الله.. لم يوجد الله الدين إلا منعا لسقوط الإنسان في هاوية النسيان.. نسيان الله.

هز عبد الله كتفيه، كإشارة على أنه لم يقتنع. إلا أن الراهب ظل مبتسما وكأنه لم يعد ثمة من أمر في الوجود يمكن أن ينغص عليه حياته. بدا مستحليا حالة من الهدوء اللدنيّ المستعصي عادة على البشر.

سأل عبد الله:

- أما زلت مشككا فيما أطلعتك عليه.

لم يجب عبد الله واكتفى بتحريك كتفيه مجددا.

- أعندك ورقة وقلما؟

سأل الراهب عبد الله.

أضاف عندما سلمهما له:

- سأكتب لك ما هو مكتوب منذ الأبد..

وراح يكتب ويقرأ في الوقت نفسه:

"معلق في السماء أن اسمك له. وإن في اسمك هو. وإنك عنده موسى. وإنك تأتيه كرها، تخال بأن حبك خلفك، فلما تعود بحبه فيك سيأخذ خلفك. ولأنك عنده موسى ستزهق روحا. وإنك مثله حين تتيه وعكسه حين تعود لأرضك حتى إذا مت كان قبرك ما كنت تهوى".



facebook.com/the.Boooks

- طلاسم لا غير.

قلت لقاسم معلقا.

- كذلك بدت لعبد الله حتى تبين العكس. فعند عودته إلى براغ لم يجد حبيبته وقد تركت له رسالة تخبره فيها أنها عادت إلى الأردن وتفكر في الاستقرار هناك. هكذا تحقق جانب مما كتبه له الراهب "تخال بأن حبك خلفك، فلما تعود بحبه فيك سيأخذ خلفك".

سنة بعدها غادر براغ ليتوجه إلى موسكو حيث أقام سنة، حتى دعاه صديق جزائري لقضاء نهاية الأسبوع في قرية تدعى تفير، وهناك حدث أن دخل في شجار مع رجل وجده يعاشر زوجته، لم يتخلص منه إلا حين طعنه وأرداه قتيلا، ليجد نفسه مجبرا على العودة إلى الجزائر.

قاطعته متمتما بذهول:

- "ولأنك عنده موسى ستزهق روحا. وإنك مثله حين تتيه وعكسه حين تعود لأرضك".

حرك قاسم رأسه موافقا.

- في النهاية، تحقق كل ما قاله الراهب له، فقد كان اسمه عبد الله، وهو اسم يشير إلى الله "معلق في السماء أن اسمك له. وإن في اسمك هو". وقد عاش كل حياته سائحا في بلاد غريبة، وكأنه النبي موسى حين تاه في



facebook.com/the.Boooks

الصحراء عن وطنه. وكما أخبره الراهب فقد مات في حادث داخل سيارته المرسيدس "حتى إذا مت كان قبرك ما كنت تهوى".



facebook.com/the.Boooks

## -2-

قلت وقد تخيّرنا مكانا في المقهى:

- وإن كنت لا أصدقها.. تبدو حياة عبد الله مشوقة للغاية، ولكني مهتم أكثر بقصتك أنت مع لبنة. سمّها أنانية ولكن قد يحل الظلام ولا تكون انتهيت من قصتك.
- صدقت ولكن لا فارق بين القصتين. ربما لم أكن واضحا في البداية، ولكنني لست بصدد حكاية قصتي، حتى أنني لا أعتقد أنها تعنيني بقدر ما تعنيك أنت.

الحب.. نعم الحب، هذا ما أحاول أن أحكي لك عنه. الصدفة وحدها ما جعلني شاهدا على مروره، والصدفة أيضا ما جمعتني بك اليوم رغم أنه لم يكن يوما يصلح لأي نوع من الحديث. ربما كأي يوم من الأيام التي قضيتها بعد آخر لقاء بلبنة. أحسب أنني وقتها قد توهمت نسيانها، أو هكذا كنت أقول لنفسي، رغم أنني وطيلة سنة كاملة لم أجرأ على التخلي عن هاتفها. ولا أعتقد أنه مر أسبوع من دون أن أحاول تشكيل رقمها ليرد عليّ نفس الصوت أن الخط مقطوع.



facebook.com/the.Boooks

أذكر أنني وفي يوم ثمل بالملل، قررت أن أتجول في مكتبات العاصمة رغبة في اقتناء كتب جديدة. كانت هذه عادتي كلما نفذ مني ما أقرأ. ومن عادتي أيضا أنه كلما حل يوم الكتب (هكذا أسميه) أعلم زبائني ليجدوا من يقلهم من وإلى عملهم.

يومها تذكرت وأنا في بلكور أن في الجوار امرأة تعرفت عليها قبل زمن، ولأن اسمها استحال على التشكل في رأسي، فكرت أن السؤال عنها في المدرسة التي تدرّس بها غير مجد. فماذا كنت لأقول للحارس مثلا حتى يتعرف عليها: قصيرة، متحجبة، بيضاء بصدر هائل؟. لم يكن ثمة من حل إلا أن أقف عند باب المدرسة في منتصف النهار وأرجو المصادفة الجميلة أن تجعلها تخرج في ذلك الوقت. أدرك أنه كان حلا يائسا، غير أني لم أكن راغبا في تجاهله، حتى لا ألومني لاحقا.

في النهاية خرج الجميع من غير أن تجعلها الصدفة تخرج أو لعلها خرجت ولم أنتبه، فلا يقين لدي يؤكد لي أنني كنت أذكر وجهها حينها، فلطالما عرفت أن لدي أنواع كثيرة من الذاكرة، لا يمكنني مثلا أن أنسى كتابا قرأته، ولا حدثا مؤلما مررت به. ولا أحسب أنه بمقدوري أن أنسى رائحة عطر مميز، ولا ملمس جسد استمتعت به. إلا أنني لم أملك قط ذاكرة تحفظ وجوه النساء اللواتي عاشرت. ففي منطقة مظلمة من عقلي تمنعني معرفتي الأكيدة بضرورة ألا أتعلق بامرأة لم يجمعنا إلا الجنس،



facebook.com/the.Boooks

من تذكر الوجوه، إلا أن هذا العقل لم يتدخل ولا مرة في منع أصابعي من تذكر الأجساد مهما اختلفت تضاريسها.

قررت بعدها أن أبدأ تجوالي بحثا عن كتب قد تهمني. الخيارات المتاحة بدت واضحة جدا: التوجه رأسا إلى شارع ديدوش مراد ومن هناك أبدأ رحلة البحث سيرا عبر "أوان" حتى أصل إلى البريد المركزي، فإذا لم أجد ما يثيرني من كتب أتغدى في أحد مطاعم "لارو طنجين"، لأستأنف البحث لاحقا. ففي وطن فقد روحه تصبح المكتبات محلات نادرة سائرة نحو الانقراض، تماما كصالات السينما أو المسارح. مسألة الروح ليست حكرا على البشر، فللأمم أرواح كذلك، قد لا تتشابه، وقد تبدو غير موجودة في بعضها، ولكنها دائما حاضرة. هي التي تمنحها هويتها وهي ما تجعل اختلافها سببا وجيها لوجودها.

هكذا ما أن بلغت "الشومان ناف" حتى قطعت مصطفى باشا رغبة في اختصار الطريق لبلوغ ميسونييه. لم أصدق عينيّ حين لمحتها بجوار سينما سيرا مايسترا. لم أكن قد رأيت وجهها بعد ولكني كنت متأكدا أنها هي. القوام الرشيق نفسه، الشعر الأشقر المسدول على كتفيها وذلك النسق الأنيق المميز للباسها.

أسرعت الخطى وقد عاود يديّ الارتجاف ويقيني أن الأدريانين قد تمكن مني. بالكاد كنت قادرا على التنفس وقلبي



facebook.com/the.Boooks

يخفق بقوة لم يجرب مثلها من قبل وأنا أحاول الوصول إليها. ورغم أن ما كان يفصلنا مجرد أمتار، إلا أن اللهفة مددت الوقت الذي استغرقته لبلوغها فكأنه العمر.

"لبنة.."

هذا ما استطعت التفوّه به حينما استوقفتها. والحق كنت لأقول أشياء أخرى لو لم يصدمني الفراغ الذي كان في عينيها. كيف لي أن أصفها لك الآن، أن أصف ملامح وجهها حين رأتني لحظتها. أتصدق لو أخبرتك أنها وهي تحملق فيّ لم أر إلا اللامبلاة. كانت حدقتاها جافتين بنحو يبعث فيك القشعريرة. وإذ ذاك شعرت بقدر هائل من الخزي شبيها بذلك الذي أفترض أن تشعر به كل اللواتي عرفنني من قبل ولا أتذكر من هنّ حين يصادف أن أراهن مرة أخرى.

كانت باردة.. نعم هذه هي الكلمة.. باردة كالثلج.

ابتسمت وهي تحاول أن تملأ عينيها بأي شيء يمنح وجهها ملامح أخرى غير تلك التي تشكل وجه دمية باربي.

أضفت كالأحمق:

"أنا قاسم.. تذكرينني؟".

حركت رأسها في إشارة على أنها تذكرنني، لكنها في نفس الوقت استسمحتني بالانصراف وغادرت من غير أن تسمح لي بإلقاء خطبة الحب الوديعة التي يفترض بي أن ألقيها.



facebook.com/the.Boooks

هـذا مـا حـدث ولا شـيء أكثـر. الحيـاة ليسـت بتلـك البساطة التي تقرؤها في رواية حب، ولا هي بذلك التعقيد الذي تجده في كتاب فلسفة. الحياة هي الحياة هكذا ولا شيء أكثر.

كانـت تلـك أول مـرة أشـعر فيهـا بالخيبـة. قبلهـا لم أكـن آمل في حدوث شيء. لكن لبنة جعلتني (رغم محاولاتي البائسة في نسيانها) آمل بحدوث شيء. تخيلت أنها ستلقاني بلهفة أو بنفور. أما اللامبلاة فكان آخر ما فكرت فيه.

لملمت ما تبقى مني واجتهدت للوصول إلى محطة آغا. لم أعد أرغب إلا في ساعة من الوحدة أقضيها بعيدا عن البشر. ففيها فقط يمكنني إعادة ضبط ساعاتي على توقيت الرجل غير الآمل الذي كنته.

كنت مدركا أن على أي شيء يربطني بلبنة أن يختفي. لا مجال للحلم والوهم والذكريات ولا حتى لهاتفها الذي أهدتني، والـذي تحـول مـن مجـرد آلـة اتصـال إلى مصـدر خطـير يبعـث الأوهام في نفسي. هكذا قررت التخلص منه، وكنت لأفعل لو لم يرن على حين غرة.

حـدثني عقلـي ألا أرد وأنفـذ قـراري بـالتخلص منـه، إلا أن صوت العقل لم يكن بتلك القوة ليجعلني أصغي إليه، لأضع الهاتف على أذني من غير أن أقول شيئا.

"أحتـاج أن أراك. أحتـاج فعـلا أن أراك. ثمـة أمـور كثـيرة عليك معرفها، انتظرني عند المحطة، نلتقي بعد ساعة".



facebook.com/the.Boooks

وقطعت الخط. وعبثا حاولت الاتصال بها مجددا فقد أغلقت الهاتف.

حينها نظر إليّ قاسم مبتسما وتابع:

- الكبرياء.. لا يجدر بالمحب أن يملك شيئا منها. كل ما عليه هو انتظار ما يعطيه المحب من دون أن يملك رأيا في مقدار ما يعطي، من دون أن يمكّن الكبرياء منه. لأنها في النهاية ليست أكثر من قاض مرتش قبض المقابل مسبقا ليحكم على حبك بالموت.

انتظاري لها، جعلني أدرك أنني واقع في الحب. بالطبع كنت لحظتها أقنع نفسي بغير ذلك، وبأنني لا أنتظر إلا رغبة في الانتقام منها، إلا طلبا لرؤيتها وجها لوجه حتى يتأتى لي قول ما يجب أن يقوله رجل جرحت مشاعره.

وعلى غير ما توقعت، جاءت في موعدها. بدت في تلك اللحظة مختلفة تماما.. آه كم كانت مختلفة حقا..

وفجأة توقف قاسم عن الحديث.

شعرت وأنا أنظر إليه أن المزيد من النور تلبّس وجهه على حين غرة. لقد كان سعيدا، لا شيء آخر غير السعادة يمكن أن يبرر الإشراق الذي تقمصه وهو يستذكر لقاءه بلبنة. أيقنت ساعتها أن لا مبالغة في قوله أنه أحبها.



facebook.com/the.Boooks

لم أشأ أن أخرجه من حالته تلك. لا يجدر بأحد أن يسمح لنفسه بإخراج أحد من الفردوس حتى رغبة في النجاة. وإن فكرت في ذلك، فقد تملّكني شعور بالغيرة منه وأنا أرى تبدل ملامحه وهو يرتشف القهوة على رشفات بطيئة، مستلذا بتيهه. حتى إذا انتهى تابع:

- الحب وحده ما يمنح القدرة على الغفران. وحده ما يجعل المهم تافها، ولأنه الحب فيستطيع قبر الأحقاد في لحد عميق لن تبعث فيه. هو حالة من التقمص الغريب والشاذ عن الطبع البشري السائد، المجبول على الأنانية والرغبة في الأخذ لا غير. قد تغريك تلك الطباع بين الحين والآخر، ولكنها لا تجعلك عبدا لها، حتى بالكاد تشعر بذاتك منفصلة عن ذات من تحب.

في الحب ينتفي المنطق الديكارتي: أنت وهو.. هو، وهو وأنت.. أنت، وكلاكما واحد رغم أنكما اثنان.

استقلنا القطار معا، ولا أحسب أننا تكلمنا في شيء محدد، على الأقل لم نتحدث عن شيء أذكره الآن. ربما لم نشأ من حديثنا إلا اغتنام فرصة تواجدنا معا. فرصة للنظر إلى بعضنا وكأنها آخر الفرص. حتى إذا بلغنا بومرداس سألتني النزول معها.

ركبنا سيارة أجرة وطلبتْ من السائق أن يوصلنا إلى حي الثمانمائة. وهناك صعدنا أدراج عمارة متهرئة وفتحت باب شقة تقع في الطابق الثاني.



facebook.com/the.Boooks

حين دخلنا، سألتني أن آخذ راحتي. وبعد أن نزعت حذائي جلست في أول مقعد صادفني في صالة الضيافة. لم تكن مؤثثة بشكل كامل، ولكن ما فيها كان كافيا ليجعلك أقل توحشا. بدت اللمسة النسائية واضحة من خلال الألوان واللوحات المعلقة على جدرانها.

حين عادت كنت أحاول فتح الشرفة لأتمكن من التدخين، فلم أشأ أن ألوث هواء الشقة وأفسد رائحتها. قالت وهي تحاول منعي من فتح الشرفة:

- لا عليك يمكنك التدخين من دون فتح أي نافذة.

ثم أحضرت لي منفضة سجائر وضعتها على منضدة خشبية تتوسط صالة الضيافة.

قلت متحاشيا النظر إليها:

- تقيمين هنا؟
- ولدت وترعرعت فيها، لكنني لم أعد أقيم هنا. كل سنة آخذ عطلة وأعودها.

علقت:

- لكنها تبدو نظيفة جدا، وكأنها آهلة طوال السنة.
- لأن هناك من ينظفها أسبوعيا أثناء غيابي.

في تلك اللحظة شعرت بغرابتي. أيعقل أن أكون في غرفة واحدة مع امرأة بهذا الجمال ولا أجد من حديث إلا عن شقتها؟



facebook.com/the.Boooks

قاطعته:

- الأمر مفهوم. كنت تبحث عن أرض صلبة تضع عليها قدميك لتقدم على أول خطوة.
- ليس بسبب ذلك فحسب، فقد أحسست أن الارتباك تمكن مني، حتى قيّد الذكر في داخلي. في العادة حين أجدني في وضع مماثل تتملكني الرغبة في من معي. ولكنني وأنا هناك تنحى الاشتهاء جانبا ليترك المكان لشيء آخر تماما. لك أن تقول الرغبة في التواجد معها فحسب.

لم تكن في تلك اللحظة مجرد أنثى، لم تكن جسدا فحسب، كانت...

قاطعته:

- امرأة.
- تماما كانت امرأة، وكان عليّ التصرف وفق رجولتي. أما ذكورتي فلم أشعر أبدا أنها تحاول انتظار الوقت المناسب للظهور.

سألتها مجددا:

- وأين تقيمين الآن؟

ضحكت وهي تشير إليّ أن أتبعها إلى المطبخ. قالت وهي تلتفت نحوي:

- أنت تحب قهوتك بلا سكر، صح؟



facebook.com/the.Boooks

استغربت أن تعرف هذا التفصيل عني. قلت من غير أن أخفي دهشتي:

- ومن أين لك أن تعرفي ذلك.

ضحكت وهي تضع إبريق البريس على الموقد:

- لا يهم ما أعرف عنك، بل ما تحب أن تعرفه أنت عني، ولنبدأ بسؤالك عن مكان إقامتي.

حركت رأسي موافقا.

- منذ سنتين أقيم في منبولييه.

- مونبولييه؟

أضفت:

- ألهذا كان خطك مقفلا ولم أصادفك ولا مرة طوال هذه السنة؟

- هل حاولت الاتصال بي؟

- بالتأكيد.

- لم؟

رغبت أن أقول لها: لأنني أحبك. ولكن أي منطق كان سيحمله هذا الجواب. تمثّلتها تضحك من فرط سخافة جوابي. تخيلتها تقول لي: تحبني؟ من أجل ماذا، علاقة فموية في قطار؟

فضلت أن أصمت وقلت:

- وكيف الحياة في مونبوليه؟

- كالحياة في غيرها.



facebook.com/the.Boooks

وحنت رأسها راسمة على وجهها ابتسامة سأم، ولكنها لم تلبث أن أعادت سؤالها:

- لم تقل لي بعد، لم كنت تحاول الاتصال بي، حتى أنك لم تتخلص من هاتفي.

ذكرها للهاتف جعلني أجد مخرجا رائعا للتنصل من سؤالها بسؤال آخر:

- ولماذا وضعت الهاتف في جيبي يوم التقينا؟

- لأنني أردت أن أعرف.

- تعرفين ماذا؟

ضحكت وهي تقوم إلى الموقد لترى إن جهزت القهوة، وكأنها لم تسمعني.

- تعرفين ماذا؟

- ما صرت أعرفه الآن..

أضافت:

- ستكون مجبرا على إقراضي سيجارة من عندك، فقد نسيت أن أشتري علبة سجائر.

أعترف بأن لبنة كانت متحدثة ماهرة. لم أعرف قط امرأة تحسن المراوغة في الحديث والتهرب من الأسئلة مثلما كانت تفعل.

حين جهزت القهوة، عدنا إلى صالة الضيافة ثم أخذنا نلوك حديثا تافها كذاك الذي دار بيننا في القطار، فقد أدركت



facebook.com/the.Boooks

بأن لبنة تحاول الإبقاء على جدار الغموض الذي وضعته منذ البداية. احترمت الأمر ولم أشأ الضغط على جدار أحسب أنه سيقسط فوقي إذا ألححت، فالمرأة العنيدة (وكانت لبنة كذلك) كالمبنى الحكومي تماما، لا يمكن الدخول إليه بغير رخصة، ولا تمنح هذه وفق ما تبديه من إصرار وتعنت، بل بحسب احترامك لشروط الحصول عليها. إلا أن الأمور لا تجري كما هو متوقع دائما، فأحيانا تكون مخالفة قواعد أي لعبة أفضل طريقة للاستمتاع بها.

هكذا فكرت في أن ثمة طريقتين لإزاحة جدار الغموض جانبا: الأولى هي انتظار أن تحدث الأمور لوحدها، وهي طريقة لطالما اعتبرتها تبريرا منمقا عن العجز. أما الثانية فأن تكثر من اللف والدوران حتى تصل إلى مركز الدائرة، وهناك يمكنك الرؤية بشكل أوضح.

أعتقد أن الدوران، هو الحركة الأكثر انسجاما مع الكون، رغم أنه في أدبياتنا يعني الحيلة والخديعة. لكنه الأصل في كل حركة يرغب صاحبها في التقدم والبقاء أكبر مدة ممكنة في لعبة الوجود الكبرى. لولا دوران القمر على الأرض ودورانها حول الشمس، ودوران هذه حول المجرة ودوران المجرات حول بعضها، لما استمر أي نجم أو كوكب في الحياة. الانتظار امتناع عن الحركة، واطمئنان غير مبرر لكون لا ينتظر إلا السكون ليعمل على سحب الوجود إلى الهاوية. حتى السير قدما في عالم يدور



facebook.com/the.Boooks

حول نفسه ليس إلا ترجمة غير أمينة عن الرضا بالبقاء في نفس المكان. في النهاية، وحده الدوران ما يمنح معنى لوجودنا، وهو وحده ما يعطي الوجود ماهية نتعلق بها لنكون.

حين لم يبق من التفاهة شيء نلوكه، سحبتني لبنة من ذراعي وهي متحمسة كطفلة في العاشرة. قالت ونحن في الرواق:

- كدت أنسى، سأريك شيئا ستحبه.

الحق أقول، شعرت وهي تمسك بذراعي بأن الذكر داخلي بدأ يُبعث من جديد. لقد كان واضحا أن امتناع الرغبة عني قبل ساعة، لم يكن بدافع الحب، بل لأن الحب يمنح الشهوة شكلا أكثر إنسانية وأقل قذارة. يصبح الاشتهاء في حيز الحب، مسألة قابلة للتأجيل، لا لأن هرموناتنا تتحرك بشكل أبطأ، بل لأننا نفكر في المتعة بعقل وليس بغريزة حيوان لا يمكنه بسبب عدم إدراكه للوقت أن يؤجل أي شيء. ألا يقال بأن الزمن بالنسبة لكائن لا يفكر حاضر أبدي؟.. في النهاية ليس الحب امتناعا عن الجنس، بقدر ما هو تعفف عنه في لحظة غريزية حاضرة، من أجل ممارسته في لحظة مقبلة يفترض فيها حصول الحب.

يمكنك الآن أن تخمن في أنها سحبتي من ذراعي لتدخلني إلى غرفة نومها، حيث تضاجعنا بلا توقف. كنت لأحب أن



facebook.com/the.Boooks

أخبرك بهذا، ولربما إشباعا لغروري الذكوري، كنت لأصف لك ما حدث بنحو قد يثيرك. ولكن الحقيقة أنها لم تسحبني إلا رغبة في جعلي أكتشف ما سيكون لاحقا تفسيرا معقولا لما أتجرأ دوما على وصفه بالصدفة.

عند آخر الرواق تتجاور غرفتان، واحدة كانت غرفة نومها أما الأخرى والتي دعتني لدخولها فكانت مخزنا هائلا للكتب.

كان الأمر مهيبا بالنسبة لرجل مثلي يعشق الكتب وطالما تمثل الفردوس كقاعة عظيمة تتراكم فيها الكتب بغير تنظيم معين.

شعرت حين دلفت إلى الداخل بمشقة (فبالكاد كنت أجد موضع قدم بسبب الكتب المتناثرة والكراتين المكدسة فوق بعضها) أنه مكان يمكن أن أقضي فيه بقية حياتي بلا تفكير. كانت لحظة من الدهشة والانبهار لم أجربها من قبل.

- ما رأيك؟

سألتني وهي تبتسم كإشارة رضا عن كونها تمكنت من إبهاري.

لم أجبها. كان يكفيها النظر إليّ لتعرف وقع ما فعلته بي.

لمحت طاولة صغيرة في زاوية من الغرفة. أحسب أنها شكلت المساحة الوحيدة التي لم تغزها الكتب. كان عليها كومة من الأوراق البيضاء مكتوبة بخط اليد. حاولت الاقتراب أكبر قدر ممكن، إلا أن بلوغها استحال بسبب ما كان يفصلنا من



facebook.com/the.Boooks

كتب قد يحتاج الواحد لساعة ليرفعها من مكانها، إلا أنني – ورغم ذلك– تمكنت من قراءة كلمة توسطت أعلى صفحة فوق كومة الأوراق تلك وكأنها كتبت لتكون عنوانا لمخطوط ما.. "الجدار"، لا شيء غير هذه الكلمة.

استحالة وصولي للطاولة بدد فضولي، لأنشغل مجددا بالمشهد المهيب الذي جعلتني لبنة أقف عليه.

قلت وأنا أحاول تصفح بعض الكتب:

– أكلها لك؟

– كنت لأحتاج عمرا كاملا لاقتنائها، وعمرا آخر لقراءة عناوينها فحسب.

أضافت:

– يمكنك اختيار ما تشاء منها، شريطة أن تعيد ما تأخذ.

قلت مازحا:

– ربما أفضل العيش هنا بينها.

فاجأتني حين قالت:

– ولمَ لا؟

ثم اندفعت إلى غرفة نومها وسرعان ما خرجت وفي يدها مفاتيح.

– هذه لك، مفاتيح الشقة.

ضحكت رغما عني، كطريقة لأقول لها: "هل أنت جادة؟".



facebook.com/the.Boooks

- ألن تأخذ المفاتيح معك؟.. أنا جادة، أريدك أن تقيم هنا في غيابي، يعني اعتبرها شقتك طوال مكوثي في منبولييه.

قلت وأنا مدرك أنا الحياة لا يمكن أن تكون بهذا السخاء:

- دعك من المزاح، لنكتفي باستعارة الكتب.
- لست أمزح، ثم إنها فرصة لأحدثك عن رغبتي في أن تغير من نمط حياتك.. لا تسئ الظن بي، ولكنك لم تعد شابا، لا يعقل أن تمضي ما تبقى من حياتك تعيش في سيارة.

حين قالت ذلك، أدركت أنه لم يعد ثمة من مجال لتجنب المواجهة. لا يمكن أن أتعمد تجاهل حقيقة أنها تعرف عني أكثر مما يجب أن تعرفه.

- كيف تعرفين كل هذه التفاصيل عن حياتي؟
- هل أفهم من سؤالك أنها الحقيقة، أنك مجرد مسن يعيش متشردا ويدعي السعادة رغم ذلك؟.

لم أجرؤ أن أجيب. كانت تقف أمامي كتمثال من الجليد الصلب وُضع في صالة عرض جهزت لأجله. كل ما جال في رأسي لحظتها ألا أقول شيئا يجعله يذوب مرة واحدة.

قلت وكأنني أهمس:

- أنا كذلك ولكن كيف تعرفين كل هذا.

حينها ضحكت واتجهت إلى باب الشقة وهي تقول بحزم:



facebook.com/the.Boooks

- قدمت لك عرضا واضحا، إما أن تأخذ المفتاح وإما أن تنصرف الآن.

قاطعت قاسم:

- بالطبع أخذته.
- لم أفعل بل انصرفت مباشرة. منعتني كبريائي من قبول عرضها. ألم أقل لك أنه لا يجدر بالمحب أن يملك شيئا منها. كل ما عليه هو انتظار ما يعطيه المحب من دون أن يملك رأيا في مقدار ما يعطي، من دون أن يمكّن الكبرياء منه. لأنها في النهاية ليست أكثر من قاض مرتش قبض المقابل مسبقا ليحكم على حبك بالموت.. لسوء الحظ لم أكن أفكر بهذا المنطق حينها.

انصرفت وأوقفت سيارة أجرة أقلتني إلى الثنية حيث ركنت سيارتي.

في تلك الليلة جانبني الرقاد. حاولت ألا أفكر في شيء محدد، إلا أن محاولاتي كلها باءت بالفشل. وبدا لي جليا أن عودة الطمأنينة إلى حياتي لن تكون إلا باتخاذ قرار حاسم مع لبنة. كان الخيار الأكثر وضوحا، أن أقطع كل صلة بها. لكنني كنت أعلم أنه عليّ أن أجد طريقة تجعل من قراري غير قابل للمراجعة. حينها شكلت رقم هاتفها وأنا مدرك لاحتمالين لا



facebook.com/the.Boooks

ثالث لهما، إما أنها لن ترد وهو ما سيعني ازدراءها لي وتعمدها الاستهتار بي، وإما أن تجيب وأكلّمها. الاحتمال الأول يحيل علاقتنا على التقاعد لانعدام الاحترام. أما الثاني فسيمكّنني من تصيّد أكبر قدر ممكن من الكلمات الجارحة لأقولها لها، وهو ما يشبه طعن أحدهم في وجهه.

بمجرد أن ردت على الهاتف شطبت الاحتمال الأول واندفعت:

- أنت مجرد قحبة أتدركين ذلك.
- يقولون لي دوما ذلك.

أجابت بدم بارد كالصقيع. ثم أضافت:

- سلم لي على حارس الحظيرة يبدو شابا وسيما.

ثم قطعت الخط، وأغلقت الهاتف مباشرة، فعبثا حاولت الاتصال مجددا.

قاطعته مذعورا:

- لا تقل لي أنها تجرأت ومارست الجنس مع الحارس.

ضحك قاسم وهو يحاول القيام:

- ألا تعتقد أنه من الأفضل لو نتمشى قليلا. بدأت أشعر بالخدر في ساقيّ.

دفعت الحساب هذه المرة. قلت ونحن ننصرف:

- هل مارست الجنس مع الحارس؟



facebook.com/the.Boooks

- لا، لم تفعل. أرادت فقط أن تغيظني وتدفعني إلى سؤاله، فما قالته جعلني أفكر في نفس الاحتمال. أرأيت كم يتشابه الفكر الغريزي؟ أعتقد أن المرأة حين ترغب في دفع رجل للقيام بأي أمر تستعين بالغريزة لا غير. إنها تدرك أن أهم نقطة ضعف فيه هي ذكورته، بمجرد التشكيك فيها أو محاولة وضعها محل خطر، تدفع بالرجل إلى التخلي عن عقله والاستعانة بغرائزه. لو سألتُ العقل حينها، لما كنت مضطرا لمخاطبة الحارس لاحقا، ولكنني حكّمت غريزتي بدافع شعوري بالمهانة أن تكون لبنة مارست الجنس مع حارس حظيرتي.

أدركت لاحقا، أنها دفعتني لسؤاله فقط لأعرف أنها مرت وتركت مفتاح الشقة عنده.

ليلتها، بالكاد تمكنت من النوم.

في الصباح أخطرت زبائني بانشغالي لأيام، ثم قدت سيارتي مباشرة إلى بومرداس رغبة في لقاء لبنة. طرقت الباب مرات من دون أن تفتح لي. فكرت أنها رحلت من جديد، ولكن شيئا غير رغبتي في رؤيتها دفعني لأفتح الباب وأدخل.

كانت الأنوار مضاءة، وكان ينساب من التلفاز بصوت منخفض حوار رجال يتحدثون. حملتني خطاي إلى باب غرفة النوم الموارب ودفعته وقد عاودني أمل رؤية لبنة من جديد.



facebook.com/the.Boooks

كان أول ما رأيت، لبنة ملقاة على الأرض. تسمّرت في مكاني وقد همس الذعر في أذني بأنها ميتة. ارتجفت وبدأت أعض على شفتي محاولا إبقائي في العالم الواقعي أكبر قدر ممكن من الوقت. لقد كانت تلك أول مرة أرى فيها شخصا ميتا، إلا أنني لم أتخيل أبدا أن يكون الموت بمثل هذا الجمال.

اقتربت منها ببطء وأنا أجاهد نفسي حتى لا أبكي. وقبل أن أتحسس نبضها فكرت في أن أغطي جثتها بأي شيء، فكانت عارية، وكانت تلك أول مرة أرى فيها جسدا بمثل هذا الكمال ولا أرغب في شيء غير البكاء.

حين فعلت انحنيت عليها ووضعت أذني على صدرها. شعرت بالدفء أولا، ثم.. "يا ألله" صرخت غير مصدق بأن قلبها ينبض.

لو سألتني الآن أي ذكرى تتجلى لديك فيها السعادة، لما ترددت في القول أنها كانت تلك اللحظة.. لحظة ماتت لبنة ورأيتها بنفسي تعود للحياة..

قبل أن أحملها لأضعها على السرير، حاولت جعلها تستفيق، إلا أنها كانت -كما يبدو- قد تمادت في الشرب حتى فقدت وعيها. فرغم أن الغرفة كانت تعبق برائحة الكحول، إلا أن حاسة شمي تعطلت لحظة دخلت غرفتها



facebook.com/the.Boooks

ووجدتها ملقية على الأرض. أعترف أن قلبي انخلع لحظتها وتوقفت جميع حواسي عن العمل بسبب الصدمة

- هل أخبرتك بأن للبنة قدمين صغيرتين، لذيذتين مسرفتين في البياض؟

قال قاسم وهو يبتسم.

- كانا أهم شيء شدني فيها وأنا أضعها على السرير. جلست بجوار قدميها وأنا أحاول إيقاظ كل حواسي حتى لا أفوّت أي لحظة من متعة النظر إليها. راودني إحساس مبهم بأن التي بجانبي أرفع منزلة من أي أنثى تمددتُ بجانبها من قبل. شعوري بذلك جعلني أكثر قدرة على تتبع حركاتها وهي تتقلب وتستدير وتتكوّر. في الأخير أدارت لي ظهرها واستقرت على وضع جنيني لا أجمل منه. كل ذلك وقد نحّت عنها الغطاء الذي سترتُها به قبل حين.

فكرت في أن أطفئ الأنوار لتنعم براحة أكبر، ولكني عدلت عن الفكرة وأنا مستمتع بمشهدها عارية من دون أن تتمكن الرغبة مني فتفسد متعتي. ليس ثمة من شيء أجمل من مشاهدة امرأة عارية غارقة في النوم. لحظتها فهمت أخيرا تلك المتعة التي كان يجدها "إيغوشي العجوز" في ترصد حركات جميلاته النائمات، ولكن متعتي وعلى عكسه كانت أقل فظاظة وأبعد ما تكون عن الرغبة.



facebook.com/the.Boooks

حين استفاقت وجدتني ممددا على جنبي أبحلق فيها. فتحت عينيها على وجهي، فرأيتُني في حدقتيها بوجه تجرّد من كل شيء لا يشي بغير الحب. تملّكني شعور دافئ بأنها عرفت جنوني بها حين أخذت تمرر يدها على وجهي وتلهو بشعري بين الحين والآخر. ثم ضمتني إليها وانكمشت في حضني.

كنت أصغي لأنفاسها ونبضات قلبي تزداد قوة وسرعة. لم يكن ذلك بسبب الرغبة التي شعرت بها حين تلاصق جسدانا، بل بدافع الخوف. نعم، شعرت لحظتها بالخوف من حقيقة استحالة حياة لا تكون لبنة فيها.

فجأة انفصلت عني. وقفت أمام مرآة الخزانة تنظر إليّ عبرها. أبكمني منظرها واقفة هكذا وظهرها إليّ. ثم التفتت نحوي وضوء الشمس لا يغفل أي جزء منها، حتى بدت كلوحة حية لا يمكن لأحد غير الله أن يدعي القدرة على رسمها.

قالت هامسة:

- هل ستبقى جامدا هناك؟

كان الأمر واضحا في أنها تدعوني لمضاجعتها، ولكنني فضلت البقاء في مكاني.

قلت وأنا أحاول أن أبتسم كأي أحمق يستحق هذا الوصف:

- يمكنني أن أقوم ولكن هل يستأهل الأمر...



facebook.com/the.Boooks

أردت أن أقول لها: "هل يستحق الجنس هنا والآن أن أضحي من أجله بمتعة الشعور بالحب".

لقد تصورت ساعتها (لغبائي أو بسبب الحرص المبالغ فيه) أن ممارستنا للجنس في تلك اللحظة قد يُخرج القطار من السكة.. أردت أن أقول لها ذلك ولكنني في النهاية لم أقل شيئا يستحق.

أدرك أن لبنة شعرت بالمهانة ساعتها، ولكنها لم تبدي ما يشي بذلك. كل ما فعلته أنها ارتدت بيجامة النوم وتمددت بجانبي وهي تقول:

- إذن فقد غيرت رأيك. يمكنك الإقامة هنا ابتداء من هذا اليوم.

ثم أضافت وهي تعود إلى حضني: "عليّ ركوب الطائرة هذا المساء".

كان الخبر مفاجئا، صاعقا.. مدمّرا لو شئت وصفا أكثر دقة، ولكنني تعمدت الهدوء. وبقينا كذلك ساعة أو أقل وصدى صوتها مستمر في خلع روحي: "عليّ ركوب الطائرة هذا المساء".



facebook.com/the.Boooks

## -3-

بعد شهرين، وفي صباح يوم مشمس على غير عادات شهر نوفمبر، خيّل إليّ أنني سمعت صوت طرق على الباب. أعتقد أنها كانت العاشرة صباحاً. كنا يوم جمعة، وهو اليوم الذي أستريح فيه من زبائني. وكنت خلال تينك الشهرين قد استرحت من عادات كثيرة لم أكن أتوقع أنني سأتخلى عنها: لم أعد أقضي يومي في السفر ذهابا وإيابا في القطار، وتوقفت عن الاستحمام في دش الحراش، وشطبت من أجندتي (يوم الكتب)، فما في مكتبة لبنة كان ليجعلني أنشغل عمرا كاملا وقد أضيف إليه عمرا آخر. ولولا حاجتي للمال لكنت استغنيت عن زبائني أيضا.

لقد منحتني لبنة بالسماح لي بالإقامة في شقتها فرصة لتجريب حياة أخرى غير تلك التي اعتدتها لأربعين عاما. أدخلت في قاموسي كلمات جديدة ما كنت لأفقهها من قبل، فقد أصبح لديّ مأوى ومقر سكن وإقامة. تخلصت من أوجاع الظهر والساقين، بعد أن صرت أنام كأي بشري سويّ على فراش وسرير، وأتدثر بغطاء يمكنني تغييره كل يومين. حتى



facebook.com/the.Boooks

عاداتي الغذائية تغيرت، بدليل أنني اكتسبت وزنا إضافيا سمح لجلدي وعظامي أن يتعرفا على شيء اسمه اللحم. ولأول مرة في حياتي الشبيهة ببعضها تعرفت على العادة البشرية المسماة "قيلولة"، بل ووجدت متعة فيها.

كنت أدرك بالطبع أنني أعيش واقعا مؤقتا، وأن العادات الجديدة التي اكتسبتها وكل الكلمات المستحدثة في قاموسي الحياتي عليها أن تكتب بقلم رصاص، هكذا يمكنني محوها في أي وقت. حياة التشرّد علمتني أن السعادة وإن كانت شعورا مؤقتا، عليها أن تتسم ببعض الأصالة في أسباب وجودها، وإلا كانت مجرد ابتكار، تماما كما ابتكر القلب الطيب للبنة سعادتي، حين سمحت لي بالمكوث في شقتها. لهذا ما كنت لأرغب أن أتعلق بحياتي الجديدة، رغم أنها بدت لي أنها الحد الأدنى من الحياة التي يفترض أن تمنح الإنسان الحق في أن يدعي أنه من البشر. كانت معرفتي الوثيقة بتقلبات الناس، تجعلني موقنا بأن وضعي مؤقت وأن تمديده لا يعني بأي حال من الأحوال إمكانية أن يصبح دائما. كان هذا يقينا لم أحتج لإثباته إلى عقل المجرّب الذي سأل يسوع أن يصيّر الحجارة خبزا ليثبت أنه ابن الله، ليخبره المسيح بكلماته أن الحقيقة لا تحتاج لوجودها لأي تحدّ أو ابتكار.



facebook.com/the.Boooks

في صبيحة ذلك اليوم، وأنا أعني التاسع عشرة من نوفمبر، خيّل إليّ أنني سمعت طرقا على الباب. فزعت، فلا أحد كان يفترض أن يأتي إلى هذه الشقة. قالت لي لبنة قبل سفرها، أن لا أحد سيزعجني، حتى فواتير الكهرباء والغاز والماء، هناك من سيدفعها من دون أن يطالبني بها أحد.

على أطراف أصابعي سرت حتى بلغت الباب. طرق الباب مرة أخرى، وهناك سمعت صوت رجل خلفه:

- حبيبتي أنت هنا؟

بدا لي أن الصوت مألوف. لا لأنني سمعته من قبل، بل لأنه يشبه صوت أيّ رجل بحّه الغضب.

- حبيبتي أنا فريد، أعرف أنك هنا، يجب أن نتكلم.

في تلك اللحظة فكرت أن أفتح الباب لأخبره أنه أخطأ في العنوان. كان يمكنني فعل ذلك، والأرجح أنه كان بمجرد رؤيته لي سيتراجع من دون أن أعلمه أنه أخطأ. ولكنني حين هممت لأفعل، سمعته يدير مفتاحا في المغلاق.

- طيب لم تتركي لي خيارا آخر، سأدخل.

قال الرجل ودفع الباب. ولفرط ارتباكي ساعتها لم أحاول الاختباء. كل ما فعلته أنني تراجعت إلى الخلف خطوتين أو ثلاثا، لأجدني وسط الرواق أحدق في الرجل الداخل.

كان في الأربعين من العمر كما أعتقد، طويلا بشعر أسود ووجه صارم حليق. بمجرد أن رآني اندفع نحوي وألقاني جانبا



facebook.com/the.Boooks

حتى اصطدمت في الحائط. أما هو فتوجه مباشرة إلى غرفة النوم، ثم سرعان ما خرج منها ليندفع إلى الغرف الأخرى. كل ذلك من دون أن يتلفظ بشيء.

حين انتهى، توجه نحوي. وكنت لحظتها أحاول فهم ما يجري غير مبال بنزيف أنفي بسبب ارتطامي بحائط الرواق.

سألني وقد جحظت عيناه:

- من أنت؟

لم أجد ما أقوله غير اسمي:

- قاسم اسمي قاسم.

أعترف أنني كنت أشعر بقلبي ينبض كما لم يفعل من قبل. أضاف وقد بدا أقل توترا حين أدرك أنه يواجه رجلا لا خطر منه، فصورتي لحظتها لم تكن من النوع الذي كنت لأفضل الاحتفاظ بها في أي ألبوم.

- وماذا تفعل هنا؟

- أقيم هنا منذ شهرين.

ثم جاءتني فكرة خبيثة كتلك التي يجدها الإنسان وهو يواجه ما لا يستطيع دفعه.. فكرة لا تنم عن الذكاء بقدر ما يمليها اليأس

- أجرت المكان منذ شهرين

- بأثاثه؟

- نعم بأثاثه.



facebook.com/the.Boooks

قلت ذلك وأنا أدعو في نفسي ألا يفكر ويفتح الخزانة في غرفة النوم، فقد كانت مليئة بملابس لبنة.

- وكيف تعرفت على جميلة؟
- جميلة؟
- نعم صاحبة الشقة؟

"اسمها جميلة إذن"، قلت في نفسي.

- لا أعرفها شخصيا. أحد أصدقائي سمسار قام بالتوسط بيننا.

حين قلت ذلك، انبسط وجه الرجل، وعاودته وداعة ما كنت لأفكر أنها يمكن أن تتلبس وجهه.

الشعور بالخوف يجعلك إنسانا أكثر قدرة على انتفاء الكلمات، حتى إنه يدخلك عوالم من الدهاء ما كنت لتتصور وجودها.

قلت محاولا أن أشد الحبل من جهتي:

- هل يمكنني أن أعرف ما يحدث. اقتحمت منزلي وأوشكت على قتلي، ولا يوجد اعتذار قد أقبله منك غير أن تشرح لي ما يحدث.
- من حقك، ولكن أؤكد لك أنه سوء تفاهم لا غير. سأكتب لك اسمي ورقم هاتفي، اتصل بي لنتفق على أي تسوية تراها مناسبة.



facebook.com/the.Boooks

قاطعته:

- لا تقل لي أنك تركته يذهب من دون أن تعرف سبب قدومه.
- وماذا كنت تريدني أن أفعل. هل نسيت أنني رجل لا يحمل ما يثبت هويته، يسكن في شقة لا دليل مكتوب يثبت أنني فيها برغبة صاحبها. ثم أي شيء يؤكد لي أن لبنة هي صاحبة الشقة فعلا.
- تقصد جميلة..
- نعم جميلة، هكذا قال الرجل.

ابتسم قاسم وتابع:

- أرأيت؟.. لا وجود لشيء اسمه السر في الحياة. ادعاء الغموض والإفراط في المراوغة ليسا إلا هدرا لوقت لا نملكه في الحقيقة.
- واحتفظت باسمه ورقمه بالطبع.
- فعلت ومن الغريب أنني ما زلت أحفظهما لحد الآن: الاسم فريد سامعي والرقم 021262931.

بعد انصرافه وضعت الورقة التي دوّن عليهما اسمه ورقمه أينما شاء، فلم يكن واردا أن أتصل به، ثم علام كنت لأفعل؟ أن أعرف أمورا أخرى عن جميلة، لا أعتقد أنه كان قرارا حكيما لو اتخذته.



facebook.com/the.Boooks

منذ استقراري في الشقة، عملت على ترتيب المكتبة. لقد أخذ مني ذلك وقتا لا يمكن تصوره، ولكنني نجحت في ترتيب ما فيها بنحو يسمح بمعرفة أصناف الكتب التي أرغب في الاطلاع عليها. كان ثمة كتب من كل نوع: الفلسفة، التاريخ، الجغرافيا، الروايات، الفلك، الشعر، حتى في الرياضيات وجدت بعض العناوين التي توزعت على لغات كثيرة. قد أقول أن ربعها بالعربية وربعها الآخر بالإنجليزية، والبقية بالألمانية والفرنسية والروسية والفارسية والأسبانية والإيطالية، وكتابان بالبرتغالية وواحد فقط باليونانية. بذلك أفرغت الشقة من الكراتين، واقتنيت رفوفا معدنية متحركة وزعت عليها الكتب. ومن أجل أن أجد راحتي، نقلت الطاولة الصغيرة إلى صالة الضيافة، واقتنيت مكتبا خشبيا مستعملا من أحد زبائني باعني إياه بخمس سعره الحقيقي.

وكنت قد وجدت بين كراتين الكتب سجلا يحمل قائمة بعناوين الكتب الموجودة في المكتبة، وقد قارنته مع الموجود في الغرفة وكان الجرد مطابقا لما في المكتبة مع فارق واحد بخصوص كتاب بعنوان "الجدار". أحسبك الآن قد تذكرت رزمة الأوراق التي حدثتك أنني لمحتها حين دخلت المكتبة لأول مرة، وهو ما تذكرته بدوري، فبدا أمرا غريبا أن يدون في سجل خصص لكتب مطبوعة عنوان مخطوطة تتشكل من ورقة تحمل عنوانا ومن أوراق بيضاء. فقد دفعني الفضول قبلها إلى قلب رزمة



facebook.com/the.Boooks

الأوراق تلك، فوجدتها صفحات بيضاء ليس عليها إلا العنوان "الجدار" مكتوب على أولى صفحات مرقمة من 1 إلى 93.

أخبرتك من قبل، أن حياتي الجديدة جعلتني أسجل كلمات في قاموسي الحياتي، لم تعرفها حياتي السابقة. أعتقد أن "الفضول" كان أهم تلك الكلمات. وربما بسبب هذه الكلمة قبلت بالمكوث في شقة جميلة، فكما أدركت أنني أحبها، أدركت أيضا أنني أحب امرأة لا أعرف عنها شيئا. يعلم الله كم قضيت من الوقت في البحث داخل الشقة عن أي شيء يجعلني أعرفها أكثر، ولكن عبثا حاولت.

كنت أعلم أن ثمة طريق مختصرة يمكن أن أسلكها إليها، غير أنها كانت طريقة أغلب الظن ستدفعها إلى الاختفاء مجددا. كان من الممكن أن أهاتف فريد هذا وأطرح السؤال الملائم، ولكن تملكني حينئذ شعور غامض في أن لا جواب في جعبة الرجل يجعلني أتوهم أنه سيكون ملائما. على الأقل، ليسمح لي بالبقاء في عالمها.

الشعور بالعجز.. نعم هذا هو الوصف الدقيق لوضعي إزاء "جميلة" حينها. شعور يدفعك إلى معاقرة الانتظار الذي لم أومن قط بجدواه. لا تأتي الأمور بمفردها أبدا. كل شيء يخضع لسببية ينبني الوجود عليها.

أعتقد أنك تدرك الآن المأزق الذي كنت فيه، محاصرا بين الواقع والتوق. ومع ذلك كنت أدعي لنفسي أنني سعيد



facebook.com/the.Boooks

بالتواجد في مكان يحفظ رائحتها، وكأن رائحتها كانت لتجعلني أتخلص من الحصار الذي أوجدتني فيه. إنني ما زلت أخجل من نفسي كلما تذكرت واقع العجز الذي لم يكن إلا وليد اقتران غير شريف بين الخوف والحبّ والجبن وعدم الاكتراث.

أحسب أن عدم اكتراثي بالرجل المسمى فريد، كان مجرد جبن تولد في نفسي بسبب عدم قدرتي حينها على مواجهة حقيقة أن جميلة ليست لي، حتى لا أقول مواجهة حقيقة أنني لم أكن في حياة جميلة إلا عجلة طوارئ لا تستعين بها إلا إذا حدث طارئ.

***

حينها توقف قاسم عن الكلام. ابتسمت له كمحاولة بائسة تجعله يفهم أنني معني بما قال. ولكنه بدا غير آبه بابتسامتي وهو يطفئ سيجارة بقدمه ويشعل أخرى في نفس الوقت.

تنهد وهو ينظر إلى السماء، ومن دون مناسبة قال:

- من المؤسف أنك لن تسمع بقية قصتي.

قلت مذعورا:

- ولم تقول ذلك؟
- سأحتاج وقتا أطول لسردها وأنا مضطر للذهاب الآن فلديّ موعد هام.



facebook.com/the.Boooks

قلت:

- إن شئت أنتظرك أو نتواعد غدا.
- قد يطول الأمر اليوم، أما غدا فلا أدري. كل شيء يتعلق بالموعد الذي عليّ اللحاق به.

قلت ساخرا:

- يعني أنك تتخلى عن مهمة إقناعي بأن الحب ضروري في حياة أي شخص حتى أنا.
- في الحقيقة لم يكن هذا هدفي منذ البداية. قد أبدو أنانيا الآن ولكن لم تكن غايتي تحقيق شيء من سعادتك. كل ما رجوته أن أعرف إن كانت قصتي تستحق أن تحكى، أو ربما...
- ربما ماذا؟
- ربما وددت معرفة إن ما زلت أتذكر تفاصيل قصتي مع جميلة، فكما تجعلك الحياة تنسى، فإنها تجد متعة سادية في إيهامك أنك نسيت.
- بالنسبة لي، لا يبدو أنك نسيت شيئا، بل ما زلت تذكر تفاصيل ما حدث لك معها. الأدهى أنك تروي كل شيء بشغف. أتعلم أمرا؟
- ماذا؟
- أعتقد أنك تتعمد إطالة القصة.. لا أعتقد أن لديك موعدا الآن، بل ترغب في تأجيل الأمر فحسب.



facebook.com/the.Boooks

ضحك قاسم وعلق مبتسما:

- ولم أفعل هذا؟

- لا أدري ولكن لديّ إحساس أنك ترغب في تأجيل القصة ليوم آخر.

ضحك مجددا:

- أقسم لك أن لديّ موعد بالفعل، ولكن سأُسر لك بأمر: لست أول واحد أحكي له عن جميلة. لو أحسنتُ العدّ لقلت أن هناك سبعة أشخاص آخرين رويت لهم قصتي وأنا على علم، أنه لن تمر أشهر حتى ينسون قصتي. أما أنت ففيك شيء مختلف. أشعر بذلك. قلت لك أن حدسي لم يخيّبني يوما. يتملكني بخصوصك شعور غريب في أنك لن تنسى قصتي أبدا.

قاطعته ساخرا:

- وقد أكتبها أيضا

أضاف بجدية:

- ولم لا؟ إن أحسنت كتابتها فستكون رواية جميلة، احرص فقط حينها أن تجعل لها عنوانا جميلا..

تملكني الضحك لحظتها وأنا أحاول أن أقول:

- لك هذا أيها الخرف. اذهب.. هيا ارحل قبل أن تفوّت موعدك، واحرص أن تكون موجودا غدا في نفس الوقت والمكان اللذين التقينا فيهما اليوم.



facebook.com/the.Boooks

ضحك قاسم بدوره وانصرف. شيعته حتى بلغ الطريق وأوقف سيارة أجرة. ثم تذكرت نكتته في أن أتمكن من كتابة قصته وقد بلغت من العمر أخر الطريق، وإن لم أبلغه فلم يبق منه إلا الجزء المائل منه. لحظتها ابتسمت وأنا أتمثل رواية بعنوان أخرق مثل فكرتي "حب في خريف مائل"...



facebook.com/the.Boooks

*facebook.com/the.Boooks*

# القسم الثالث

وفيه:

تفصيل عمّا يمكن أن يحدث حين تفتح بابا مغلقا. ولمَ تصبح الأشياء واضحة حين ندّعي بأنها كذلك.. ولم حين يحضر الحب.. يحظر السكوت..



facebook.com/the.Boooks

*facebook.com/the.Boooks*

## -1-

"لا شيء مهم حدث بعدها. نفس التفاهات التي أحبّ وصفها على أنها روتين.

عدت لشقتي بعد أن اقتنيت وجبة خفيفة من المطعم أسفل العمارة. ثم أعددت لنفسي فنجان شاي وتمدّدت على سريري في انتظار أن يرنّ هاتفي ككل يوم، فكالعادة لا يفوت أولادي يوما من غير مكالمتي. أحسب أنها طريقة لبقة ليعرفوا إن متّ أو ما زلت على قيد الحياة.. وبعد حديث مقرف اتسم بالطيبة في الظاهر وبالسأم مني في الحقيقة، شرعت في قراءة كتاب (لا أذكر كم مرة قرأته من قبل) أملا في إغواء النوم.".

هذا ما أخبرت به قاسم لما التقينا صباحا في حديقة خميستي، حين سألني عما فعلت بعد افتراقنا. الحقيقة أنني تعمّدت ألا أضيف بأنني بالأمس لم أستعن بالكتاب لاستجلاب النعاس، فقد شغلتني قصة قاسم، حتى وجدتني أقلّبها في رأسي وقد امتنع النوم عني إلى ساعة متأخرة.



facebook.com/the.Boooks

قال متذمرا:

- ألم تفكر قط في حديثنا بالأمس؟

أجبت متخابثا:

- وهل قلت ما يجعلني أفكر فيه؟. قضيتَ يوما كاملا تتلهى في هامش القصة، وحين حان وقت الجد انصرفت.

ضحك قاسم وقال:

- لن أنصرف اليوم حتى أنتهي من قصتي، وقد آخذك في جولة قصيرة تؤكد لك أنها قصة حقيقية بالفعل، رغم أنني شخصيا حين أسردها في رأسي أجدها ليست كذلك. من الغريب كم يبدو الماضي خياليا حين نبتعد عنه.

هززت رأسي موافقا.

تابع وهو يقوم:

- دعنا نتمشّى قليلا. أشعر اليوم بالضجر وأخشى أنه لا طاقة لي على البقاء في مكان واحد.

اقترحت أن نسلك طريق "أودان"، معللا:

- مضى زمن منذ آخر مرة تنزهت فيه، لا أدري لم؟ ولكن هناك دوما سبب يجعلنا لا نسلك طريقا معينا. في معظم الأحيان نجده سببا منطقيا كفاية لنقتنع به. في الحياة مثلا نقوم بخيارات معينة إمّا لاعتقادنا أنها الأفضل وإمّا



facebook.com/the.Boooks

لأننا نُضطر إليها. وحين نفعل ذلك ندّعي دوما أن هنالك سببا وجيها لاختياراتنا، ولكنها ليست هذه هي الحقيقة دائما، لأننا قد نقوم بخيارات معينة من دون سبب محدد، على الأقل ليس سببا واضحا كما ندّعي.

- صدقت، ولكن هذا أفضل من عدم الإقدام على أي خيار، فهناك من يعتقد أن عدم القيام بأي خيار في الحياة قد يكون نوعا من الخلاص. الفكرة ألا يقدموا على أي قرار ويتركون الأمور تجري كما قُدّر لها. بالطبع لا يعدو هذا إلا خنوعا وإن برعنا في منحه أسماء أخرى كالحياد. كلمة أخرى أجمعنا على ارتباطها بالعقل بالرغم من كونها ربيبة الجنون. انتظار حدوث الأمور هو رضا بسقوطها فوق رؤوسنا لا أكثر ولا أقل. وهو ما حصل معي حين لم أفعل شيئا إزاء ما حدث يوم جاء ذلك الرجل إلى شقة جميلة، فالمنطق والحرص كانا يمليان عليّ أن أبادر بالاتصال به، هكذا كان يمكنني أن أخلق لديه طمأنينة تقيني من أي خطر محدق قد يشكله عليّ، سيما وأنني كذبت على الرجل وادعيت أنني مجرد مستأجر لا غير.

حين أفكر في الأمر، أجد أن عدم اكتراثي به هو ما دفعه ليزورني مرة أخرى بعد شهرين منذ تلك الزيارة. هذه المرة قدم



facebook.com/the.Boooks

ليلا، وعلى عكس المرة الأولى لم يطرق الباب بل دخل دون إذن.

كنت إذ ذاك في المكتبة أقرأ كتابا ما، حين فاجأني صوته:

- تبدو مستريحا وكأنك في بيتك.

التفت مذعورا وقد غاض الدم من وجهي وتعلقت عيناي بوجهه العظمي. بدا مستريحا وهو يقف عند الباب وبفمه سيجارة تفوح منها رائحة الحشيش.

أضاف مستهزئا:

- ربما أصبح بيتك فعلا، فلم أر المكتبة بهذا الترتيب من قبل.

لم أقل شيئا، وقمت من مكاني من غير أن أتقدم نحوه. بقيت واقفا أبحلق فيه وعلى لساني الكثير من الاحتمالات التي تصلح أن تكون مشاريع كلام لم أقله في النهاية. ففي لحظة كهذه (أقصد التي يتملكك فيها الشعور بالعجز في الدفاع عن نفسك ليقينك بأنك مذنب) لن تجد أفضل من جدار الصمت تختبئ خلفه في انتظار لحظة أخرى قد تُشكّل مخرجا من أي نوع.

تابع وهو يتقدم نحوي، مادا يده رغبة في مصافحتي:

- اسمي فريد، وأنا بطريقة ما صاحب هذه الشقة.

قلت متفاديا مصافحته:

- تشرفت لكني حسبت أنها شقة جميلة.



facebook.com/the.Boooks

قال مبتسما، وقد سحب يده:

- جميلة؟... وتقولها بلا تكلف.

- هي في سن أصغر بناتي، فعلام التكلف إذن؟

قلت ذلك من دون تفكير مسبق. ومن غير أن أدرك أنني أوجدت لنفسي مخرجا ذكيا أملته عليّ غريزة النجاة.

- صدقت.. صدقت.

أضاف وهو يتصنع تصفح كتابٍ ما:

- أحتاج فقط أن تخبرني عن سبب وجودك في هذه الشقة.

- كما أخبرتك في أول مرة، استأجرتها من صاحبتها.

- استأجرتها.. جميل. يعني يمكنني رؤية عقد الإيجار.

أجبت وقد عاودتني شجاعة أغلب الظن أنها كانت مرادفا قبيحا للتهور الذي لا بد منه لأي غريق يدرك بأن الموت والحياة ليسا إلا مجرد قرار سريع لا مناص من اتخاذه.

- يمكنك بالطبع شريطة أن تمكنني من رؤية مؤخرتك.

ومن دون أن أنتظر ردة فعله أضفت:

- لقد كنت لبقا بما فيه الكفاية معك، وأحسب أن لباقتي جعلتك تتجرأ إلى حدّ اقتحام شقتي..

قاطعني:

- شقتك؟..



facebook.com/the.Boooks

- ما دمت قد دفعت مقابلها مسبقا، فهي شقتي بلا ريب.

ثم تقدمت نحوه وأخذت الكتاب من بين يديه بالقوة. وإذ ظل مشدوها، أضفت بصوت أردته أن يكون مرتفعا:

- إما أن تنصرف الآن، أو أستدعي الشرطة لتتصرّف معك. وفي كلتا الحالتين ستنصرف في الأخير.

كنت حازما. هكذا أصف نفسي ساعتها، وبهذا كان ليصفني لو سئل عني. ومع هذا لا يسعني الآن إلا الاعتراف بأنني كنت أجبن من أن أستمر في المجازفة بادعاء الحزم لو فقط تحداني ولم ينصرف. ولكنه لحسن حظي انصرف أخيرا.

أعتقد أن هذه المقابلة الغريبة، كانت السبب في قراري بالتوقف عن الادعاء بأنني في وضع أفضل مما كنت عليه. تعلّقي بامرأة لا أعرف عنها شيئا، وبجدران تريح جسدي وتحقن روحي قلقا، لم يجعلاني إلا أسير الترقب والانتظار. في تلك الليلة قررت أن أسحب الدرج وأرى ما كان مخبئا فيه.

قاطعته:

- تقصد أن تعرف سبب ظهور جميلة في حياتك.

- بالضبط، وكم دهشت حين عرفت السبب.

ترقبت أن يضيف شيئا آخر ولكنه لم يفعل. كنا قد تجاوزنا بأمتار محطة الميترو، وعلى مرمى البصر-بالجانب الآخر



facebook.com/the.Boooks

من الطريق- كان العشرات من الناس واقفين يتفرجون على ما يحدث في الجانب الآخر.

قلت:

- لعله حادث مرور.

تنهد قاسم وضحك بشيء من المرارة. قال:

- بل قصة حبّ أخرى، أغرب من قصتي.

وقبل أن أعلق أضاف:

- لك أن تقول أنها قصة اغتصاب مقرفة يرويها عاشق أحمق على أنها قصة حب.

تابع وهو يحثني على السير:

- من الأفضل أن نقطع الطريق إلى الجانب الآخر. أترى هؤلاء؟ (وأشار إلى الجمع الواقف) يعرفون أنهم في الجانب الصحيح، فليسوا أكثر من متفرّجين لم يجمعهم إلا الفضول. إنه الجانب الصحيح إذ لا يرتقب أن يحدث فيه شيء، لهذا يشعرون بأمن كاذب، تماما كما يفترض أن يشعر به الميت داخل قبره.

بحلقت فيه بنحو جعله يدرك أنني لم أفهم شيئا.

أضاف مبتسما:

- يبدو يا صديقي أنك تعيش في عالم آخر، ولكن خيرا فعلت، فلا شيء في هذا العالم يستحق أن تكدّر



facebook.com/the.Boooks

صفوك بسببه، حتى وإن كانت هذه المسرحية التي يمكنني أن ألخصها لك في جملة واحدة لا غير: "أبناء قحبة يترجّون أبناء منيوكة ألا يؤلموهم حين يولجون أيورهم في أدبارهم".

ضحكت وأنا أترقب ما سيضيف.

- الذين تراهم تحاصرهم الشرطة ويُسحب بعضهم كالماعز يلعبون دور المعارض، والآخرون في الجانب الآخر -المتفرجون عليهم- يلعبون دور المحكّم الذي لا يحتاج في الحقيقة إلى مشاهدة كل المسرحية ليقرر مستواها، ما دام يعلم أنه لا مناص من التصفيق والإقرار بأن المخرج عبقري رغم بلادة ممثليه. سيقولون لك بالطبع أنها مسرحية واقعية، وأنها تلعب وفق نص غير مكتوب، وأن كل ممثل يرتجل دوره بما يراه يناسب قناعاته. سيقولون لك هذا وأكثر، لكنني أؤكد لك أن الأدوار كتبت ووزعت وألا مجال للجمهور أو المحكّمين للادعاء بأنها سيئة، لا لشيء، إلا لأن نفس المخرج أثبت جدارته وعبقريته في مسرحيات سابقة.

بالطبع هذه المرة جازف حين أسند البطولة لرجل كسيح، لا يتكلم ولا يراه الناس، ولكنها مجازفة تستحق، ليثبت للعالم أن الفشل كلمة شطبها منذ أمد من قاموسه. الفكرة واضحة



facebook.com/the.Boooks

وكافية لتنجح، لأنها فكرة لصيقة بالإيمان لا غير. كلنا نؤمن بالله رغم أننا لا نراه ولا يكلمنا، نؤمن بكتبه وموقنون أنها من عنده رغم أننا لم نشهده يكتبها أو يقرؤها. نؤمن أنه الأفضل رغم أننا لا نجد طريقة لنقارنه، والأهم نؤمن إيمانا راسخا أن لا إله سواه يمكن أن يمنحنا الخلاص. وكالله، قرر المخرج أن يكون بطله فلم لا نؤمن به كإيماننا بالله؟.. لم لا نؤمن بأنه بطلنا حتى إن لم يظهر لنا لنراه؟.. لم لا نصدق زبانيته حين يقرؤون علينا رسائل يقولون أنها منه، حتى إن لم نشهده يكتبها؟.. لم لا نؤمن بأنه الأفضل حتى إن لم نمكّن من معرفة سواه لنقارنه به؟.. لم لا نؤمن بأنه صاحب الخلاص، وأنه لا يمنحه للكافرين به؟.

قلت هامسا:

- كالله.. كالله تماما..
- بالضبط، كالله تماما.. ألم أخبرك أن الحب قد يغير من حياة الرجل وإن كان في خريف عمره.. وإن كان مقعدا لا يفصله عن القبر إلا تحية سلام؟.. هذه أيضا قصة حب صديقي. صحيح أنه من طرف واحد، فهذا الوطن المشئوم، هذه الأرض الشمطاء لم تجد بعد رجلا يحبها وتحبه، وتصغي إليه حين يأمرها أن تتوقف عن فتح ساقيها لأي عابر. صحيح أنه اغتصاب، ولكن الوقت كفيل أن يُنسي المغتصبة أن



facebook.com/the.Boooks

الرجل الذي يضاجعها منذ عقود أجبرها منذ البداية على ممارسة الجنس معه رغم نفورها منه. الوقت كفيل بجعل الاغتصاب فعلا مشروعا فرضته مصلحة المغتصب، تماما كما قد يحول تلك القصة المقرفة إلى قصة حب تستحق أن تحكى.

كنّا إذ ذاك قد ابتعدنا عن تلك الجمهرة، وبدا أن إحساسا خانقا بالضيق قد تملكني وأنا أصغي إليه. كنت لأطلب منه أن يتوقف عن هذا الحديث، ولكنه توقف من دون طلب، وكأنه شعر بذلك الألم الذي يعاودني كلما تأملت هذا الواقع الملعون منذ عقود بلعنة تاريخ كاذب صنعه رجال لا يَصْدقون إلا لاعوجاج ألسنتهم. لقد أدركت ومنذ سنين ألا مجال لبلوغ السعادة في هذا الوطن. مهما يكن، ليست السعادة إلا وصفا لبقا لواقع حمقى لا يدركون بأنهم كذلك.. تمنيت أن أكون رجلاً أحمقاً سعيداً كمعظم من يعيش في هذا الوطن البائس، كمعظم هذا الشعب القاصر رغم رشده.

قال قاسم وهو يشعل سيجارة بعقب أخرى، مشيرا إلى ناحية ما:

- في هذه الجهة مقهى "big smail"، حيث كنت وعبد الله نجتمع كل يوم مساء. أحببت أن أجعلك



facebook.com/the.Boooks

تراها ولكنها لم تعد موجودة الآن.

- ليس أمرا غريبا، في هذا البلد لا يملك الإنسان قيمة حتى نطمع في أن تملكها الأماكن. حتى أنني أحياناً أفكر أننا شعب يستمتع بمحو تاريخه وذكرياته.

قال وهو يشير لي أن نسلك طريق رضا حوحو:

- ليست قضية متعة بل مجرد ردة فعل. حين تقرأ التاريخ تكتشف أننا شعب يملك قابلية خاصة للاستعباد. قرون من الذلة والانبطاح لا تلد إنسانا سويا، بل كائنا معقدا من ماض يعلم أنه من اختاره لنفسه، ومن حاضر أبى أن يعيشه من غير سيّد. لهذا السبب نعمل جاهدين على طمس تاريخنا بالكتابة والبناء حينا وبالشطب والهدم أحايين أخرى. هكذا يلعب المحو دورا مهما في إبقائنا صامدين أمام حقيقة صادمة جدا لا نجهر بها رغم معرفتنا بها جميعا، وهي الاعتراف بعدم قدرتنا على البقاء في عالم لا سيّد لنا فيه. في الماضي كان الاستعمار هذا السيّد، وفي الحاضر أصبح السيّد سلطة مستبدة نجد لها ملايين الأسباب لتستمر.

أومأت موافقا.

تابع وهو يبتسم:

- لعبد الله مقولة جميلة تجعل من مسألة قبول هذا الواقع تحصيل حاصل. كنت كلما خضت معه في حديث



facebook.com/the.Boooks

من هذا النوع، يتعمد الإصغاء وما أن أنتهي يسألني بخبث:

"وهل اكتشفت كل هذا من قراءة الكتب؟".

وكنت أرد عليه بطيبة الشاب الغرّ أي نعم. فيردف جادا:

"جميل. ولكن أي خيار يملكه ابن قحبة يولد في ماخور؟.. لا تتعب نفسك فالجواب هو نفسه مهما تعددت الاحتمالات، لا خيار لديه إلا أن يقر بأمرين لا ثالث لهما: أنه ابن قحبة وأنه ولد في ماخور. بمجرد تصالحه مع هذه الحقيقة يستطيع أن يصبح أي شخص يريد. نحن لا نعترف بهذه الحقيقة بسبب تمكّن عقدة النقص منا، ولأننا كذلك –ولا مجال الآن لنكون على غير ما نحن عليه – فلا بد أن نتعامل مع الواقع ببعض الدهاء الذي يقتضي نوعا خاصا من الحكمة في التعامل مع تاريخنا. لا نحتاج إلى كل ذاكرتنا، بل يكفينا القليل منها فحسب. حكمة تقول بأننا لا نحتاج إلى الكثير من العلم، لأن البقاء في النهاية لا يحتاج إلا للقليل منه والكثير من القحبجة".

ضحكت بمرارة، ويقيني أن الاستمرار في هذا الحديث، يضطرنا إلى دفع تلك الباب المغلقة والنظر داخل غرفة العهر، تلك المسماة الوطن.



facebook.com/the.Boooks

قلت:

"ألم يحن الوقت لنجلس في مكان ما؟".

"عمر الخيام.. حانة أحب الجلوس فيها".

أجاب قاسم وهو يشير نحوها.

ضحكت للصدفة الجميلة التي جعلته يختارها. فقد كان أبي صديق صاحبها "الدا حسين"، رجل رائع عرفته في صباي. اخبرني أبي مرة أنه لم يمتلك صديقا سواه، وأنهما تصادقا منذ الطفولة ولم يفترقا من حينها.

قلت ذلك لقاسم ونحن نهم بالدخول.

علق على الفور: "على الأقل امتلك أبوك صديقا". وضحك متخابثا.

أضاف بعد أن جلب النادل طلبيتنا:

- فكرة عودة الرجل أرقتني، ولكني لم أجد طريقة أخرى غير الانغماس في حياتي الجديدة لتبديد مخاوفي. أقنعت نفسي في النهاية ألا شيء يستحق أن أخاف عليه، ففي أسوء الاحتمالات سأعود إلى حياتي الأولى وكأن شيئا لم يكن. ولولا رغبتي الشديدة في رؤية جميلة مرة أخرى لما بقيت لحظة في تلك الشقة التي عوض أن تريحني أضافت عليّ.



facebook.com/the.Boooks

شهران بعد ذلك وصلتني رسالة من جميلة تخبرني بقدومها بعد أسبوعين. كانت رسالة مختصرة وغريبة:

"قاسم، أعرف أن فريد قد مرّ عليك، وأخبرته أنني أجرتك الشقة ولا علاقة تربطنا. أشكرك لرغبتك في حمايتي، ولكن ما كان عليك أن تكذب.

لم يعد مرحبا بك في شقتي. وحين ترحل احمل معك ما تشاء من كتب. ثمة كتب كثيرة قد يهتم بها رجل مثلك، خذ ما تشاء منها واعتبره هدية.

غالبا سأكون هناك بعد أسبوعين، هي مهلتك للرحيل.

مودتي.. جميلة

ملاحظة: اترك المفاتيح في علبة البريد".

بهذا الطلب، خلصتني جميلة من مسؤولية القرار.

تركتُ الشقة قبل موعد مجيئها بأسبوع، وعدت إلى حياتي السابقة بعد أن ملأت صندوق سيارتي كتبا. أذكر أنها كانت ستة وخمسون كتابا، ذخيرة سنة كاملة. ولسبب قد أسميه الآن الصدفة، حملت معي كومة الأوراق، تلك التي ليس فيها شيء مكتوب. وكنت سعيدا إذ ذاك أن تخلصت من هواجسي بخصوص فريد، زوج جميلة أو خطيبها أو لست أدري من يكون.



facebook.com/the.Boooks

مع ذلك، كنت كلما ذكرته، تبادر إلى ذهني اسم رجل خيالي اخترعته إحدى عاهراتي لتشبط به عزم من لا ترغب فيهم.

كان اسمها "فرح"، أو كان هذا آخر ما أعطتني من أسماء لها. أذكر الاسم وليس من عادتي أن أذكر أسماء نسائي، فقط لأنه تصادف أن أمي كان اسمها كذلك.

وعدا اسمها، لم تملك فرح من شيء أذكره غير ثدييها الكبيرين، فقد كانا كما أتصور نتاج حلب مستمر دام لعقد أو أكثر، إذ لم يكن من تناسق بينهما وجسدها الهزيل، ولا حتى بينهما وصوتها الطفولي الذي لم يراع أنها شبت بما يكفي ليكون صوتها.

كلما ذكرتُ فريد، تبادر إلى ذهني اسم رجلها الخيالي المدعو وليد. فزاعة اخترعتها فرح لتشعر بجانب من براءة فقدتها قبل سنين، ولربما كان ملجأها الذهني لتشعر أنها امرأة ككل النساء، تحبّ وتحَبّ. ملجأ مثالي جعلته عاشقا عذريا يتعفف عن لمسها، وجعلها تخترع لنفسها طباعا لا تليق بعاهرة تحترم مهنتها.

في النهاية لا يسعى الإنسان إلى الحقيقة، وإن سعى إليها يتفادى كل درب يقوده إلى حقيقته.

تماثل الرجلان في ذهني كفزاعة لا غير، وإن لم تكن تلك هي الحقيقة فيما يخص جميلة، فقد استأنست بهذه



facebook.com/the.Boooks

الفكرة كلما خطر لي أمر رجلها حتى لا أمكن الخوف من نفسي.

ثم مر شهر آخر من غير أن تظهر جميلة، ومن دون أن يرن هاتفي أو أتمكن من الاتصال بهاتفها. وعلى هذا حسمت الأمر بداخلي على أن القصة قد انتهت عند هذا الحدّ، وبدت مكنة نسيانها والتخلص من ذكراها أكثر وضوحا من ذي قبل، حتى أنني تخلصت -وإن بجهد- من هاتفها وعدت إلى أذرع وأفخاذ عاهراتي من دون أن تتصور لي فيهن هذه المرة، لأرتدي بزة رجل السبع دقائق بامتياز.

شعرت بالحزن في البداية، ولكنه كان حزنا يجعلني أكثر رضا عن نفسي مما كنت عليه وأنا في شقتها وهي في قلبي.

وكنت وقتها قد شرعت في قراءة كتاب رائع جلبته من شقة جميلة يتحدث عن "هرمس"، هذا الرجل الذي ادعى الجميع أنه منهم، لا ليقينهم بذلك بل لأنه كان مفتاحا روحيا قدم للبشرية ما لم يستطع الأنبياء تقديمه.

قاطعته:

- هرمس؟! كأنه اسم فارسي..
- ادعى الفرس أنه منهم، وسموه هرمز، وقال المصريون القدامى أنه مصري واسمه أخنوخ، واجتهد العرب كعادتهم ونسبوه إليهم وقالوا أنه إدريس. فبالكاد تجد



facebook.com/the.Boooks

عرقا أو حضارة لم تحاول أن تمنحه اسما وشكلا ولم تدع أنه منها، بالرغم من أن كل تلك الأعراق وجميع تلك الحضارات استولت على فكره وتنكرت لاسمه ولحقيقته في نفس الوقت.

ذكرت الكتاب، لأنني وأنا أستعد لقراءة محاورة هرمس لإسكليبيوس المتضمنة ماهية الله، انقبضت روحي حين وجدت قصاصة ورقة بحجم اليد مكتوب في أعلاها "عين طير الزين". كان قد مضى وقت لم أسمع ولم أقرأ هذا الاسم، فقد غدا بعد كل تلك السنين مجرد ذكرى لمكان عشت فيه ذات يوم، كتلك الذكريات التي لم تعد تحمل تفاصيل عنها إلا الاسم.

لاحظت أن الخط على هذه القصاصة هو نفسه الخط الذي كتبت به كلمة "الجدار" على رزمة الأوراق التي حدثتك عنها.

فجأة توقف قاسم عن الكلام وهو يفتش في جيوبه، حتى أخرج ورقة مطوية على اثنين من جيب جاكيته الداخلي.

قال وهو يريني إياها:

- هذه هي. يمكنك قراءتها.

أخذتها منه ورحت أتفحصها بعيني العجوزين. وحين أدركت استحالة قراءتها بعينين مجردتين وضعت نظارة القراءة وأخذت أقرأ:



facebook.com/the.Boooks

"عين طير الزين
التيه وعدم الرغبة في النظر إلى لوحة لا غموض فيها
البحث عن الذات عبر تجاهل البحث
اكتشاف الحب وإدراك حقيقة أنه والله سواء في الصفات والماهية
الله—الحب: علة العقل والنفس والنور والحياة."

أضاف حين أدرك أنني أنهيت القراءة:
- اقلب القصاصة..
قلبت الورقة وكان على ظهرها:
نزلت بطير الزين أسأل ريحها أما عاد طير الزين وادا لمن أهوى

حينها نظرت إليه فوجدته مبتسما. قال:
- أرأيت؟.. أحسب أنك تتمثل اندهاشي لحظة ما قرأت هذه القصاصة. لا أحد كان على علم باسم قريتي ولا بهذا البيت غير صديقي عبد الله طرشي. لا أحد سواه، ولكنه ليس من كتب هذه القصاصة، فأنا أعرف خطه جيدا.

أعترف أن تلك القصاصة جعلتني أفكر مجددا في جميلة. فكرت أن بمقدورها تخليصي من سؤال آخر انضم لعشرات الأسئلة التي حيرتني منذ تعرفت عليها. لكنني ولسبب قد



facebook.com/the.Boooks

تسميه الحدس، شعرت أنه سيكون أهم سؤال، لك أن تقول مفتاح كل الأسئلة الأخرى.

هكذا اندفعت وركبت سيارتي وسقتها حتى بلغت مكان شقتها.

رفعت رأسي أنظر. كانت الشقة مضاءة، فرأيت خيال امرأة أحسب أنك تعرف من تكون.



facebook.com/the.Boooks

## -2-

وكأن شيئا لم يكن، ولا حتى قراري الأخير في الانفصال عنها صمد لحظة رأيتها من جديد.

استقبلتني بوجومي مبتسمة، وما كدت أخطو داخل شقتها حتى التصقت بي.

كان يكفيها ذلك لتجعلني أكسر جرة الزمن والمنطق لأتماهى بها. تقمصتها وتقمصتني. وأنا على تخوم الاشتهاء نظرت نحوها، وقد تراءت لي كل نساء العالم فيها. تراجع الزمن ثم تباطأ وهو يلقي بآلاف السنين في هوة الفناء، وإذ ذاك، رأيتني آدم مستفردا بعرش الله بعد أن نفاه إلى الأرض.

كانت ليلة من جنون.. كانت ليلة للحب. ليس حبي لها فحسب، بل حبها أيضا تملكها وتملكني.

قلت لها ساخرا حين صحونا من سكرنا:

- أتذكرين ليلة أمس؟

قالت وهي تربت على صدري:

- ليس تماما فأنا امرأة بلا ذاكرة.



facebook.com/the.Boooks

- سأذكرها من أجلك، من أجلنا، حتى وإن كنت أعيش بنصف ذاكرة.

أضافت وهي تضحك:

- أتهبني نصفها؟

قلت:

- هي لك ولكن شريطة أن تحتفظي فيها بذكراك أنت ولوحدك.
- لو فعلت فلن يتبقى لك شيء..
- ليكن.. فقد صرت كل شيء.

قلت حين استبد به الصمت:

- هل عدتما معا؟

ابتسم قاسم وهو يملأ كأسه:

- كنا كذلك في كل وقت منذ التقينا أول مرة في القطار. كنا كذلك ولم نفترق أبدا، ولكنني كيهودي مؤمن احتجت لأرى الله حتى أعلن إيماني.

ونحن نشرب قهوتنا في المطبخ، رن هاتفها فردت من غير أن تتحرج مني. وحين علمت من على الطرف الآخر من الخط، وضعت الهاتف على الطاولة وشغلت مكبر الصوت:

- فيم تحتاجني؟

ردت بجفاء بعد أن جلست بجواري وشدت على يدي.



facebook.com/the.Boooks

قال الصوت:

- أنا زوجك جميلة، هل أحتاج لسبب كي أعرف مكانك؟
- أخبرتك بقرار انفصالي عنك، ولا حاجة للبحث عني.
- أعرف أنك مع ذلك العجوز الخرف في شقتك الماخور..

وقطعت المكالمة ثم أغلقت الهاتف.

حين أردت أن أقول شيئا لم تسمح لي وهي تضغط على ذراعي وقد وضعت رأسها على كتفي.

قالت بعد صمت:

- أريد أن أطبخ لك اليوم. أخبرني بما تشتهي على الغذاء.

ضحكت وأنا أقول:

- شيئا لن تجيدي طبخه.

أجابت بتدلل:

- تريدني أنا على الغذاء؟!

وتابعت هامسة وهي تقبلني على رقبتي:

- لست أي أكلة حبيبي تأكلها مرتين أو ثلاثا في اليوم، أنا فاكهة يمكن أن تأكلها في كل اليوم وتشتهي منها المزيد.

أضافت وهي تحدق بي:

- بجد، أخبرني عمّ تشتهي على الغذاء.
- "الدوّارة".. تجيدين طبخها؟
- الدوارة؟.. لا أعرف هذه الكلمة ماذا تكون.



facebook.com/the.Boooks

- معدة الخروف..
- آه، هـذه؟.. نسـميها "البكبوكـة".. اتفقنـا، أمهلـني نصف ساعة أنزل للسوق وأعود.

ولم أشعر حتى ارتدت ملابسها وغادرت.

***

ضحكت وأنا أرى ملامح السعادة على وجهه. قلت:

- تركت زوجها وبقيت معك.. قصة جميلة بنهاية سعيدة
- هي كذلك ولكن ليس لهذا السبب.

ثم قام من مكانه وأشار إليّ بالانصراف. قال:

- يجدر بنا الانصراف الآن. نؤجل الغداء، فأنا أرغب في أخذك بجولة.

عند خروجنا. قال لي أن نأخذ طريق ميسونيي من جهة طريق البساكرة اتجاه المستشفى.

قلت: "أترغب في شراء شيء معين؟". حرك رأسه بالإيجاب وانصرفنا.

وعند المدخل السفلي لمصطفى باشا استأذنني لحظة وانصرف. شيّعته بناظري وهو يدخل محلا لبيع الأقمشة، ثم لم تمض دقائق حتى خرج وفي يده شيء.

قال وهو يحثني على السير في اتجاه المستشفى:

- أسبق أن رأيت إنسانا ميتا؟



facebook.com/the.Boooks

- بالطبع، فقد سمح لي طول العمر أن أدفن جميع من عرفت.

ضحك وهو يتابع:

- وكيف وجدته؟

- من تقصد؟

- الموت.. كيف وجدت الموت على وجوه من رأيت من موتى؟

- ليس جميلا.. باردا وسخيفا.

قال وهو يشعل سيجارة:

- لم يسبق لي أن رأيت جثة، حتى حين توفي أبي لم أستطع توديعه.

ضحك وهو يأخذ نفسا عميقا:

- أليس من السخيف أن يقوم الناس بتوديع جثث غادرتها الروح.

قلت:

- ليس بالضرورة، رؤية الميت قبل دفنه ليست وداعا، مجرد محاولة بائسة لتصيد آخر فرصة لرؤيته قبل أن يبلى. لك أن تقول وفاء لذكرى ما.

توقف فجأة وقال:

- وصلنا..

وأشار إلى مبنى مسيّج داخل المستشفى. أضاف:



facebook.com/the.Boooks

- أتحب أن تعرف نهاية قصتي مع جميلة؟.
- بالطبع..
- لم تنته بعد وقد لن تنتهي أبدا..

قلت وقد لاحظت مسحة الكآبة وقد تلبّست وجهه:
- ماذا اشتريت من ذلك المحل؟
- شيئا سأحتاجه مساء كما أتصور.
- ولم أحضرتني إلى هنا؟
- لأعرفك بجميلة.
سألته كالأحمق:
- هل تعمل هنا؟
ضحك قاسم وهو يلقي بسيجارته ثم عفسها. قال:
- لندخل، كنت قد كلمت جميلة عنك بالأمس وأخبرتها أنني سأصحبك معي اليوم.
لم أعلق وتبعته إلى المبنى وصعدنا طابقين.
كان المكان يعج بالناس، زائرين ومرضى وأطباء وممرضين.
قال وهو يسألني أن أنتظر قليلا:
- ليست أوقات زيارة ولكنني أعرف طبيبا يمكنه أن يدخلنا إلى جناح المرضى.
أبكمني الذهول. وبقيت في مكاني حتى تراءى لي من جديد وهو يشير إلي أن أتقدم.



facebook.com/the.Boooks

في الداخل همس لي قبل أن ندخل إحدى الغرف:

- تنزل جميلة هنا منذ شهر، بالأمس فقط تأكد ألا أمل لشفائها.. أضاف وقد استعاد ابتسامته حين دخلنا: "لا تظهر أي جزع أمامها".

بدت الغرفة باردة أو هكذا أحسب أنها بدت.

تخلفت عن قاسم وصديقه الطبيب وبقيت خلفهما واقفا أمام الباب من دون أن أنظر صوب المرأة الممدة، والتي بالكاد كان صوتها يسمع.

حين انصرف الطبيب رفعت رأسي. كان قاسم جالسا على طرف السرير يمسك بيمناها بكلتي يديه في صمت، أما هي فكانت تنظر صوبي محاولة الابتسام.

ابتسمت لها وقد انتابني شعور مؤلم بالحزن. ثم تذكرت طلب قاسم ألا أظهر جزعي فأطريت ابتسامي بما قدرت عليه.

قلت بأسف مخاطبا جميلة:

- عساك بخير بنيّتي؟

ابتسمت من غير أن تقول شيئا، ثم ضربت صدرها مرتين وقبلت باطن راحها.

كانت تلك إشارة عن الرضا.

لم أضف شيئا واستأذنت قاسم في الانصراف على أن ألقاه خارج المبنى.



facebook.com/the.Boooks

استغرق خروج قاسم ساعة من الزمن كانت كفيلة لتجعلني أستعيد صورة جميلة في ذهني. كانت رغم ما تبقى من ملامح جمالها صورة قاتمة، جعلتني أتذكر مرة أخرى عبث الوجود، سادية المشيئة ورغبة الموت في من لا يرغب فيه.

وهبت عليّ نسائم دافئة محملة بروائح الصنوبر والكاليبتوس والبرتقال. كانت تعبق من تلك الأشجار برائحة الحياة. استحليت الأمر وهي تخلصني من روائح الكحول الطبي وملاءات المرضى والموت التي غمرتني وأنا بداخل المبنى.

مر الوقت، وقاسم لم يخرج، وفيه جالستني قطة بيضاء مرقعة بالرمادي، وحين انصرفت أخذ مكانها رجل أربعيني لم يكف عن محاولة التحدث معي في أي شيء من دون أن ييأس مني رغم تجاهلي له. ثم عجوز مع ابنتها بدتا تنتظران شخصا ثالثا لم يأت. ولعل بعدهما جالسني شاب أو اثنان لم يلاحظا وجودي هناك.

بعد ساعة بالضبط خرج قاسم. اختفت ابتسامته وبدا مفرغا وأكثر نحولا من قبل.

قلت مبديا ما يليق بالموقف من تفهم:

- لا عليك إن رغبت في البقاء لمدة أطول. يمكنني انتظارك ما شئت من وقت.

لم يجب وانصرفنا من غير أن أحاول بدء أي حديث.



facebook.com/the.Boooks

حين بلغنا بوابة المستشفى السفلي، اقترح قاسم أن نتناول الغداء في بلكور. وافقته وقد راقتني فكرة أن أتمشى لأطول مدة.

قلت ونحن نقطع الطريق إلى "الأقواس":

- بعد حين سنمر على العمارة التي بها شقة ألبير كامو. أعرف مالكها جيدا لو شئت أن نزورها.

قال ساخرا:

- وما حاجتنا إلى ذلك؟ أراهنك ألا شيء فيها بقي كما كان أيام "كامو". أخبرتك من قبل أن هذا الوطن ينبذ ذكرياته وأبناءه.
- ربما ولكن كامو لم يكن جزائريا لنقول أن الوطن نبذه لهذا السبب.

تضاحك قاسم رابتا على كتفي:

لا أحد كان جزائريا وقتها يا صديقي، ولا أحسب أن أحدا صار كذلك الآن إلا على الورق.

ضحكت بدوري وكان يجدر بي البكاء ساعتها.

قال حين دخلنا مطعم عمي السعيد:

- أحب هذا المكان، فقد تعودت أن أتغدى فيه مرة كل شهر. أقصد اليوم الذي أحاسب فيه زبائني. لكنني هذه المرة لا أفعل ذلك بسبب هذه العادة. أردت توديعه فحسب.

أضاف حين تهيأت لأعلق:



facebook.com/the.Boooks

- لم تقل شيئا عن رؤيتك لجميلة.

قلت متحرجا:

- لا شيء يصلح لأقوله في هذه الظروف.

قال مفتعلا بعض السخرية:

- لا تتصنع الاهتمام، مهما يكن فهي بالنسبة إليك امرأة غريبة ولا ضير ألا تكون مهتما بموتها أو حياتها.

قلت وقد انفعلت:

- إن كان هذا ما ترغب في سماعه فليكن، لا يعنيني موتها كما لم تعنني حياتها، ولا تلك القصة البائسة التي أضجرتني بها منذ أمس.

ومن دون أن أفكر تهيأت للقيام والانصراف لولا أنه أمسك بساعدي.

أعترف أن ثمة القليل من الأمور تخرجني عن طوعي، وكان ما حدث واحدا منها. لا أقصد اعتقاد قاسم بأنني متبلد المشاعر غير معني بغيري وبأحاسيسهم، بل السلطان الذي يمنحه الناس لأنفسهم في إصدار الأحكام على غيرهم، واعتقادهم بأنهم يدركون بواعث الأفعال وكأنهم أسمى من تلك البواعث.

قال حين بدا أنني نفضت الغضب عن وجهي:

- ماذا كنت لتطلب على الغداء لو كانت هذه آخر وجباتك؟



facebook.com/the.Boooks

- لا أدري، ربما وجبة غير صحية تماما، من تلك التي يمنعها عنك الأطباء خوفا عليك من الموت. أفكر دائما أن على الإنسان ألا يستمر في الخوف من النهاية في اللحظة التي توشك النهاية فيها على احتضانه. ليس عليه أن يمنح الموت المزيد من المتعة وليس بينهما إلا خطوة مجبر على خطوها.. لك أن تقول هي طريقة لانتزاع ما يتبقى من احترام الذات من براثن المشيئة حين يغدو من المتعارف عليه أن احترام الذات مسألة قابلة للنقاش.
- أما أنا فكنت لأطلب أي وجبة ارتبطت بلحظة سعادة حقيقية في حياتي.

قاطعته مازحا:

- ستطلب "البكبوكة" إذن..

ضحك وبحركة غير منتظرة أشار للنادل وطلب هذه الوجبة. لم أفكر لحظتها إلا في أنه يجاريني ولم يخطر ببالي ما قاله في البداية حين تحدث عن "آخر وجبة"..

قال بمجرد أن انصرف النادل:

- أرأيت كيف تتعلق السعادة بأمور نحسبها في العادة تافهة وبسيطة؟.. أحيانا أفكر في أن سعادتي ليست أكثر من ذلك. عشت قبل جميلة خمسة وستين عاما،



facebook.com/the.Boooks

خلت فيها السعادة تكمن في مكان ما، لا يفصلنا عنه إلا قرار نتخذه أو لا نتخذه. مع جميلة أدركت بأن السعادة أتفه من أن تكون قرارا، وفي نفس الوقت أعظم من أي قرار يمكن أي يتخذ.. مجرد ابتكار ذهني اضطرنا إليه حاضر سرعان ما ينتهي عند بوابة الذاكرة، فوحدها الذكريات تملك القدرة على إصدار الحكم فيما عشناه، ولسبب قد لن نعيه أبدا تتعلق الذكريات بأشياء لم نكن لنلاحظها أبدا.

بعد أن تغدينا ذلك اليوم، قضينا كل المساء نتجادل حول ما يمكننا فعله. اقترحت أن نغادر الشقة ونجد مكانا آخر نقيم فيه حتى تظهر نوايا زوجها. أما هي فلم تشأ أن نفر إلى أي مكان، يكفي كما قالت أن نغيّر مفاتيح الباب وتبدأ بعدها في إجراءات الطلاق.

أعترف أنني وجدت الأمر غير عادل أن تفقد جميلة كل شيء من أجل رجل لا يملك شيئا ليفقده. أدرك الآن أنني كنت أحمقاً حين فكرت في ذلك، فلطالما لم تحسم مسائل الحبّ بالحساب.

في النهاية قررنا أن تبدأ إجراءات الطلاق على أن نغادر شقتها إلى حين ينتهي الأمر. هكذا اكترينا مسكنا في العاصمة من غرفتين، أثثناه ببعض ما في شقة جميلة من دون أن نحمل من الكتب إلا ما حملته معي في سيارتي آخر مرة. وكانت جميلة



facebook.com/the.Boooks

قد كلفت محاميا بقضية تطليقها، ولم تمض سنة حتى طلقت بالفعل، وعدنا إلى شقتها في بومرداس.

وطوال تلك السنة لم نسمع بفريد، حتى أنه لم يحضر جلسات المحاكمة ولا كلف محاميا في أن ينوب عنه. كانت تلك إشارة إلى أنه رضخ للأمر الواقع حين تأكد أنه لا جدوى من الإصرار.

وبدت أمورنا تسير نحو الأحسن لو لم تفاجئني جميلة بطلب غير متوقع على الإطلاق.

أذكر أننا كنا في شهر مايو. الشهر الذي كان يحب عبد الله طرشي أن يصفه بشهر البعث من دون سبب واضح. على الأقل لم يعلمني أبدا به. وكانت جميلة قد أقنعتني قبلها بأن أغير من حياتي بالقدر اللازم المتوافق مع حياتنا معا.

توقفت عن عمل السواقة وخططنا معا لأبدأ عملا جديدا يتوافق مع سني وعاداتي الحياتية السابقة التي رافقتني لأكثر من أربعين عاما. وبعد تفكير وجدت أنه ليس أفضل لي من أفتتح دكانا لبيع الكتب.

ولأن جميلة أرادت أن أستقل بهذه التجارة، فلم ترغب في مشاركتي فيها وتسجيل التجارة باسمها. وهكذا تقرر أن أعود إلى قريتي "عين طير الزين" لأستخرج لنفسي ما يلزم من وثائق لتجديد بطاقة هويتي وأشرع في إجراءات استئجار محل.



facebook.com/the.Boooks

حين أذكر الأمر وما حدث لاحقا، تعاودني قصة عبد الله مع الراهب الهندوسي، تلك التي لم أفكر أبدا في أنها قصة لا تخص عبد الله فحسب، ففي النهاية، ليست الحياة إلا بحثا غير مجد عما يستوجب علينا اتخاذه من قرارات قد تم اتخاذها مسبقا.

قبيل سفري بأيام، اتفقت وجميلة أن أوضب الكتب الموجودة في شقتها وأعدها للنقل في كراتين بحسب مواضيعها ولغاتها، حتى إذا جهز المحل نجدنا مستعدين لبدء تجارتنا الصغيرة.

استغرق الأمر عشرة أيام كما أذكر. وفيها عثرت جميلة على محلّ لائق بالمكان المسمى "علي ليقية"، واتفقت مع صاحبه على مقابل إيجاره.

كنا نأمل أن نبدأ حياة جديدة، بعد أن بدا لنا أننا تحررنا أخيرا من ماضينا. ولكنني وعلى عكسها كانت تشغلني أسئلة تمنعني عن الأمل. لم يكن من الممكن بالنسبة لي أن أبدأ السير بحذاء تملؤه الحجارة. لهذا قررت ونحن نتهيأ لتلك الحياة التي رجوناها معا أن أجرأ على سؤالها.

في ليلة سفري، وبينما كانت توضب حقيبتي وضعت الورقة التي عثرت عليها سابقا في كتاب "هرمس" في المكان المخصص لنومها على السرير.



facebook.com/the.Boooks

كانت الفكرة أن أجد مدخلا مناسبا لسؤالها عن كل تلك الأسرار التي تحتفظ بها، والتي بشكل أو بآخر تلتقي كلها عندي.. عند حياتي السابقة وتفاصيل تلك الحياة.

حين انتهت من توضيب الحقيبة، تهيأت لتستلقي بجواري.

كنت أحدق فيها محاولا رصد أي انفعال مهما كان قد تصدره بمجرد أن تقع عيناها على الورقة، ولكنها ما أن لاحظتها رفعتها مبتسمة لا غير، واستلقت وهي تقول:

- وجدتها إذن؟

قلت وقد صدمتني حقيقة أن توقع ردود فعلها لم يكن هينا كما تصورت.

- وجدت ماذا.. ما معنى هذه الورقة؟

- لم تلاحظ شيئا إذن؟

- لا..

أجبت من دون أن أرفع عنها بصري. وفجأة خطر ببالي شيءٌ لم أفكر فيه من قبل.. "ما أغباني"، صرخت في رأسي، كيف لم ألاحظ أنه كان خطها؟

- هذا خطك..

- هو كذلك، بالطبع خطي.

وقبل أن أعلق أضافت:

- كتبتها حين كنت أراجع درسا قديما..

ثم قفزت من مكانها وخرجت من الغرفة.



facebook.com/the.Boooks

قمت بدوري وتبعتها. لكنها طلبت مني انتظارها إلى حين تعود.

قالت بمجرد أن تجاوزت عتبة باب الغرفة:

- من حقك أن تعرف الآن.. أعدك، لا مزيد من الأسرار.

ومدت يدها نحوي، وسلمتني ورقة أخرى. نظرت كانت تلك شهادة ميلادها.

***

قاطعته:

- شهادة ميلاد؟

- نعم.. شهادة ميلاد ليس أكثر. ولكنها كانت جوابا لكل أسئلتي.

كان يكفي اسم والديها لأتوقف عن السؤال. أبوها عبد الله طرشي وأمها لبنة قنطري.

صرخت مذعورا:

- صديقك والمرأة البدينة؟!.

- بالضبط: عبد الله ولبنة. أخبرتني لاحقا أنها ولدت سنة رحيل عبد الله ولم يكن على علم أنها ابنته إلا بعد سنين، فقد أخفت لبنة عنه حقيقة حملها منه وفضلت الارتباط برجل مسن ورحلت معه إلى الثنية. وبعد ولادتها



facebook.com/the.Boooks

سجلتها على أنها ابنة هذا الرجل، ولكن عبد الله حين علم بالأمر أصر أن تسجل باسمه وهو ما كان.

- الآن، لم يتبق من لغز في معرفتها بتفاصيل حياتك.
- لا، لم يعد ثمة من سر، إلا أمرا واحدا حيّرني حين أخبرتني به جميلة.
- أي أمر؟
- سفر عبد الله طرشي إلى قريتي "عين طير الزين".

يومها أدركت كم كنت غبيا حين تصورت أنني كنت أعرف كل شيء عن عبد الله. الإنسان ببساطته أكثر تعقيدا من أي كائن آخر. الادعاء بمعرفة الغير ليس أكثر من كذبة اختلقناها تيسيرا للألفة التي بدونها يصبح الانسجام مفهوما غامضا حتى على العقول الأكثر تنورا. ومع ذلك يمكنني أن أقول لك الآن، أن ما أخبرتني به جميلة لم يفاجئني تماما. كان عبد الله من ذلك النوع الذي يؤمن بأن الأمور–كل الأمور– لا تحدث بلا سبب، ولأنه كذلك فقد حرّكته قصة اختفاء أمي، وكل ذلك الهراء الذي لحق أبي جراء هذا الاختفاء. حركته.. باتجاه قريتي بحثا عن قصة يمكّنني منها ذات يوم. لا لشيء إلا لأحفظها لو شئت في ذاكرتي.

كنت بالنسبة إليه رجلا تائها ما دمت لم أتصالح مع ذاكرتي، مع هذا الماضي الذي عوض أن أواجهه تركته خلفي،



facebook.com/the.Boooks

والذي بكل حمق ادعيت أنني أفضل من دونه.. ادعاء مغفل بلا شك.

أخبرتني جميلة أنه هاتفها حين همّ بالعودة، كانت إذ ذاك في الخامسة عشرة، بدا سعيدا مثلما أخبرتني. كل ما قاله لها أن ذاكرتي كانت أقل بؤسا مما تصورت، بل لعلها كانت من الجمال ما سيجعلني أغير من حياتي. ثم طلب منها أن تستعد لتكتب ما سيمليه عليها، ولكن كل ما تلفظ به كانت تلك الكلمة "الجدار".. عنوان المخطوطة البيضاء.

عند تسلم الجثة، سلمت الشرطة أمها محفظة لم يكن فيها إلا بعض المال وأوراق بيضاء مرقمة من الواحد إلى 93 وعليها ثبّتت تلك الورقة المبهمة التي عثرت عليها في كتاب هرمس. كان هذا كل ما أخبرتني به جميلة، وأعتقد أنه كل ما عرفته حقيقة.



facebook.com/the.Boooks

## -3-

قلت لقاسم ونحن نستعد لمغادرة المطعم:

- لا بدّ أنك وجميلة تزوجتما بعد طلاقها ؟

- ليس بعده مباشرة، لم نتزوج إلا منذ أسبوع..

أضاف بمجرد أن لاحظ تحديقي به:

- تزوجنا للأسباب الوجيهة فحسب. يتطلب اعتنائي بجميلة أن أملك وثائق لفعل ذلك.

صدمتني برودة دمه وهو يقول ذلك. لم أتصور أبدا أن يتحدث أحدهم عن الموت بتلك الطريقة، ولا أن يصور لي الزواج كحاضن للموت فحسب. وكنت لأقول له ذلك لو أنه لم يتابع:

- أعرف أنك تجدني شاذا حين أتحدث عن موت جميلة وكأنه أمر وقع بالفعل. أحبّ أن أذكرك أنني أحبها، حتى أنني لم أحب سواها، ولكن لا سبيل أمامي إلا لتقبل الأمر. تقبلت موتها وما كنت لأفعل لو لم أسافر إلى قريتي، لا لاستخراج وثائقي فحسب، بل أيضا لتقفي خطى عبد الله فيها.



facebook.com/the.Boooks

أثارتني فكرة اكتشافه لأمر يخصني إلى درجة أن هدفي الأول من سفري لم يعد مهما كما كان أول مرة. سافرت، وبلا جهد يذكر عثرت على ذاكرتي. في الحقيقة لم أحتج لأبحث عنها كما تصورت. أدركت بمجرد وصولي بأن مرور عبد الله بقريتي وإن كان بغاية النبش في ماضيَ، سمح لقرية كاملة بوأد موتها للأبد.

صيف 2012!.. على عتبته وقفت أنظر إلى هالة الحياة التي رسمتها يد عبد الله تحيط بعين طير الزين. لم أتصور قط أن مكانا خلقه الله على الأرض تذكيرا للناس بهول الجحيم قد يتحول إلى ما بدا لي من أول وهلة كأنه قطعة من الفردوس.

توقف قاسم فجأة عن الكلام، ثم رفع رأسه إلى السماء يحدق في خيالات لم تنعكس إلا على حدقتيه.

اعترته حالة من السكينة، قد أجرؤ وأقول أنني لم أشاهدها على وجه رجل قط.

قال على حين غرة:

- هل ثمة من لحظة محددة يكتشف فيها الإنسان غايته في الوجود. أقصد تلك التي يتوقف فيها تدفق الاحتمالات ويصبح الشك فيها مرادفا دقيقا للعمى؟.. أعتقد أنني بمجرد عثوري على ذاكرتي عانقت فيها تلك اللحظة.. لحظة تكشف عندها



facebook.com/the.Boooks

لاحقي كما لم أتصوّر أنه يفعل أبدا، وحينها فقط تمكنت أخيرا من مواجهة نفسي وقبول ما أنا عليه.

قاطعته:

- وعمّ عثرت بالضبط؟

ابتسم قاسم. قال وهو يشدني من ذراعي:

- ما منحني القوة لاحقا.. ما يجعلني أصدق اليوم بأن حياتي بكل عبثها ولا مبالاتها كانت لغاية أسمى من كل ما قد يفكر فيه إنسان. عثرت على البصيرة التي جعلتني أرى الأشياء كما هي وليس كما نراها نحن في العادة.

أتصدق لو أخبرتك الآن بأن كل ما تراه أعيننا وما قد تبصره عقولنا حتى الجبارة منها ليس ما نراه ونبصره حقا؟.. أتصدق أن الأشياء بمسمياتها التي تعارفنا عليها ليست هي نفسها بحقيقتها التي خلقت عليها؟.. هل تصدق لو أخبرتك أن عقولنا مجرد مرايا لا تبصر الأشياء إلا بمعكوساتها؟.. في النهاية ليس ثمة من موت ولا نهاية ولا اندثار لأنه لا حياة ولا بداية ولا وجود كذلك. كلها مسميات اخترعها الإنسان في محاولة تبرير قصوره الأبدي في فهم ذاته. لم تملك الحقيقة قطّ وجها محددا لندعي كذبا أننا من أجله نخطئ ونصيب.. نحب ونكره أو من أجله نحيي ونميت.



facebook.com/the.Boooks

توقف فجأة، ضاغطا على يدي:

- أتعلم ما اكتشفت وعبد الله في رحلتنا إلى قريتي؟.. أن أسمى غاية لحياة أي إنسان ليست أكثر من قبوله لذاته، ليست أكثر من أن يكون هو. إدراكه لهذه الغاية سيعفيه من الخوض في أي رحلة سخيفة بغرض البحث عن الحقيقة، على الأقل لن يحاول التشبث بالوهم المسمى حياة، ولن يجرأ على الاعتقاد بأن ما يرى ويبصر من أشياء هي تلك الأشياء التي يراها بعينيه ويبصرها بعقله.

ثم توقف قاسم فجأة عن الكلام مرة أخرى.

كنت أشعر بأنه يجاهد نفسه ليجد كلمات بعينها ليقولها. أحيانا يتلبّس البكم ألسنتنا ليس لأننا لا نجد ما نقول، بل لأننا نملك الكثير لنقوله... واحدة من متناقضات الحياة فحسب.

وأنا استرق النظر إليه لحظتها، رغبة في تصيّد أية ملامح في وجهه أو حركة يقوم بها تمكنني إحداها من تغيير مجرى الحديث، لاحظت ولأول مرة محفظة جلدية صغيرة يعلقها على كتفه، كان أحيانا-بسبب ثقلها ربما- يتأبطها أو يغير موقعها من كتف إلى أخرى.

أشرت إلى محفظته وقلت مبديا فضولا أعترف أنني تصنّعته:

- لأي غاية تحمل هذه؟



facebook.com/the.Boooks

- في معظم الأحيان أضع فيها كتابا أتلهى به. أما اليوم فلأن فيها هدية كنت أنوي أن أعطيك إياها حين نفترق.

أضاف وهو يهم بفتحها:

- ما دمت ذكرت المحفظة فلا بأس، أعطيك هديتك الآن.

قال ذلك وهو يخرج مجلدا بنيا صغير الحجم وسلمنيه.

تابع وهو يفعل:

- ليس عليك أن تشكريني ولا أن تبدي أي اندهاش. هذه مخطوطة "الجدار".

أخذت أتصفح المجلد وفتحته من منتصفه. صعقت وأنا أكتشف أنه مجلد من أوراق بيضاء فحسب. وقبل أن أعلق بأي شيء قال:

- ليست مزحة. لا يحتاج هذا الكتاب إلى كلمات لتتمكن من قراءته.

- كتاب بلا كلمات؟!

قلت وقد غلبني الضحك.

- تبدو فكرة مضحكة أوافقك الرأي، على الأقل كنت لأوافقك عليها من قبل. ولكن ألا تعتقد أن هذا الكتاب يشبهك؟ فأنت بطريقة أو بأخرى مجرد كتاب فارغ لا يحمل إلا عنوانا هو اسمك... فكر في الأمر



facebook.com/the.Boooks

قبل أن تغضب. الحياة التي لم تعرف الحب حياة فارغة، تزداد خواء كلما سارت على خط الزمن. كانت حياتك كذلك بلا شك، تماما كما كانت حياتي قبل أن أقابل جميلة. ومع هذا يحذوني الأمل – ولك أن تسميه الغباء– في أنك بدأت تفكر فيه بنحو مختلف. هذا سبب إهدائي هذا المجلد لك أملا في أن تهدم آخر جدار يفصلك عن الحب.

- قد يكون جدارا بنيته لحماية نفسي.. "قلت هازئا".

- ربما، وربما لتصعد فوقه ويملؤك الوهم بأنك سترى العالم بشكل مختلف، لكن نتيجة أفعالنا لا تصنعها أبدا نوايانا. بل غالبا ما تصبح جدرانا تمنعنا من تحقيق ما كان في الأصل مبعث تلك النوايا.

أنا مثلا، بنيت طيلة أربعين سنة جدرانا من العبث خلتها تحميني من واقع لم يترك لي إلا هامشا ضيقا قضيت فيه جل عمري. في النهاية، لم تحمني تلك الجدران بقدر ما سجنتني في حياة البهيمة التي كنتها. لقد سحبت مني كل الروح التي كانت ذات يوم تبقيني إنسانا يستحق الانتماء إلى البشرية، ولولا أن نفخ الحب فيّ من روحه لما تمكنت أبدا من العودة إلى إنسانيتي.

سيروي هذا الكتاب الذي أهديتك قصص المرتدين عن إنسانيتهم، قصص جدران العقل والروح التي أصبحنا نتفنن في



facebook.com/the.Boooks

بنائها باسم الدين والأخلاق والله والخوف والحب والوطنية وكل ذلك الهراء الذي لا يزيدنا إلا بعدا عن غاية وجودنا في هذه الأرض، تلك التي تجعلنا نتقبل ذواتنا بما هي عليه وليس بما يجب أن تكون. لهذا فليس على هذا الكتاب أن يكتب بالكلمات. لا يحتاج هذا الكتاب إلا لعنوانه فحسب.

- أهذه هي القصة التي أحب عبد الله أن يمليها على جميلة يوم مقتله؟
- لم يكن يومها ليملي عليها شيئا آخر غير العنوان كان سيكتفي فقط بذكر السبب الذي جعله يفكر فيه.

تذكر أنني أخبرتك بقصة والدي، وكيف تحالفت الصدف والرغبة في الظهور بمظهر جميل في تزوير تاريخ قريتي، حين حوّلوه من مجرد شخص مدمن على الجنس إلى شهيد حب. كل تاريخ البشرية كتب على هذا النحو رغبة في تجميل وجه أفقده الواقع كل ملامحه.

لم يكن عبد الله مهتما بتلك القصة بل ببيت الشعر الذي أخبرتك بأنه منقوش على صخرة في تل اعتاد أبي الجلوس فيه. وإلى هناك توجه عبد الله، وقضى فيه أربعين ليلة حتى نزل وقد ملأه يقين واحد لا غير، أن في ذلك التل نجاة قريتي.

كان خلال تلك المدة لا ينزل إلا ليسأل أهل القرية أن يسمحوا له بالمبيت ليلة أخرى، وكانوا يسمحون له بذلك لا



facebook.com/the.Boooks

حبا ولا شفقة به، بل لأنه كان يدفع لهم ما يلزم لشراء قبولهم، ولعله كان يدفع أكثر من المطلوب لمنعهم من سؤاله عمّ يفعل فوق، وعمّ يرغب في العثور عليه. لم يفعلوا خلال أربعين يوما إلا قبض المقابل ورؤيته يقضي نهاره في الحفر وليله في التأمل.

في الليلة الأربعين نزل عبد الله من التل. كانت ليلة رطبة وباردة. نزل يتقدمه الغبار بوجه بشوش. لم يحدّث أحدا. ركب سيارته المرسيدس وأدار المحرك وانطلق. بين رحيله ومكالمته لجميلة مضى أكثر من شهرين، وفيهما وقع أهل القرية على ما اكتشفه عبد الله في التل.

حين عدت إلى قريتي وقفت على ذلك المنظر الرهيب الذي شكلته عشرات الجدران التي كانت إلى وقت قريب مردومة في الأرض. اكتشف عبد الله أن بيت الشعر ذاك لم يكن إلا بيتا واحدا في قصيدة حب طويلة وزعت على أربعين جدارا متراصا لا يبعد الواحد عن الآخر إلا عشرة أمتار.

أذكر أن أحد الروائيين كتب عن ذلك، عن قصة الراعي الذي عشق أميرة وأراد أن يبوح لها بحبه، وعوض أن يصارحها مباشرة كان يبني جدارا وينقش عليه أبيات شعر تحكي عن وجده بها، وفي ظنه أنها ستمر بجداره وتقرأ أشعاره، ولكنها لم تفعل ذلك أبدا، وحين أعياه الانتظار وأراد أن يخبرها بنفسه، اكتشف أنه جعل بينه وبينها عشرات الجدران منعته من الوصول إليها.. ألم أقل لك أن نتائج أفعالنا لا تصنعها أبدا



facebook.com/the.Boooks

نوايانا، بل غالبا ما تصبح جدرانا تمنعنا من تحقيق ما كان في الأصل مبعثا لتلك النوايا؟.. قصة خالدة لو شئت.. كئيبة ربما، ولكنها الصورة الأكثر صدقا للحب الذي حين يَحضر يُحظر الصمت معه....

***

عدت بعدها إلى جميلة محملا بتلك القصة وقد هدمت أخيرا الجدار الذي منعني عن نفسي كل تلك العقود. عدت إليها وليس ينتابني شك في رغبتي أن أظل معها إلى آخر العمر.

حين بلغت مشارف شقتنا سمعت شجارا ينبعث منها. فتحت الباب ليفاجئني وجه فريد، طليق جميلة، وهو ينظر صوبي شزرا.

صرخت به بمجرد أن تقاطعت نظراتنا وأمرته أن يخرج. ولكنه ظل واقفا بجسده النحيل المتعظم وقد حال ما بيني وبين جميلة. حاولت سحبه من ذراعه لأرغمه على المغادرة ولكنه فاجأني بلكمة في البطن أسقطتني أرضا، ثم راح يركلني على وجهي حتى فقدت الوعي.

استعدت وعيي في نفس المكان الذي صرعت فيه على منظر جميلة تبكي في صمت. كان الدم النازف من أنفي ومن جروح خلفها ركل فريد لوجهي قد جف مغيّرا لون بشرتي.



facebook.com/the.Boooks

قلت وأنا أحاول الوقوف على قدميّ:

- لا عليك، سنجد حلا يبعد هذا الأحمق عنا.

لم تنبس جميلة بكلمة. ساعدتني على الوقوف والمشي حتى بلغنا سرير غرفة النوم أين استلقيت. ثم أحضرت بعض الماء والمناشف ونظفتني.

قالت وهي تستلقي بجواري:

- كنت محقا حين اقترحت أن نغادر هذه الشقة. يمكننا فعل ذلك الآن، لن نحتاج وقتا لنبيعها بسعر مناسب ونشتري أخرى في العاصمة.

- نهرب؟!

- نهرب.

- أنت من يقول ذلك؟!.. لا تفكري في الأمر، سنجد طريقة أخرى لإبعاده عنا.

صمتت لحظتها وصمت أنا كذلك، ليس لأنني لم أجد ما أضيف، بل لأن شعورا غامضا انتابني جعلني أوقن أن الأمور ستتغير في حياتي أنا وجميلة من تلك اللحظة.

قضينا سنة بعدها نحاول الادعاء ألا شيء تغير، رغم أن حياتنا تركت سكتها الأولى وعاودت الانغماس في مستنقعات الأسرار القذرة والكلام اللبق، الحذر الذي كنت أعلم ما كان يخفي. عشنا حياة ظاهرها السعادة وباطنها التوجس من كل شيء.



facebook.com/the.Boooks

في سنة واحدة غيّرت جميلة رقم هاتفها سبع مرات، واستبدلت أقفال الباب مرات لم أحصها لكثرتها. وفي كل مرة كنت أتعمد عدم سؤالها، وفي المقابل كنت أشعر بغبطتها حين لا أسأل، حتى عن تلك المكالمات التي تصلها في كل وقت وتضطر إلى قطعها، لتقوم في اليوم الموالي بتغيير رقمها.

بقينا نعيش على هذا النحو سنة كما أخبرتك، ومع نهايتها تبين مرض جميلة بسرطان الدم. قدّر أطباء أن فرص نجاتها ضئيلة جدا، وآخرون أكدوا ألا مجال للأمل في شفائها وأن أقصى ما ستعيشه سنة فحسب. حينها فكرت أننا نستحق أن نعيش ما تبقى لنا معا بسعادة من دون أي هاجس قد يمنعنا من الاستمتاع حقيقة.

***

حينها صمت قاسم مشيرا إليّ أن نتوقف.

قال:

- سأودعك الآن صديقي. علي الاستعداد لموعد لا يصلح أن تصحبني إليه.

قلت:

- نلتقي غدا؟
- ولمَ؟
- لتكمل القصة.



facebook.com/the.Boooks

حينها ضحك وهمس لي وهو يعانقني:

- أنت رجل طيب وصديق رائع.

أضاف بعد أن انفصل عني:

- لم يعد لي ما أضيفه، فقصتي تنتهي هنا. ولكن ثقتي فيك أنك ستنهيها بشكل مختلف.

وقبل أن أجد شيئا أقوله، قطع الطريق إلى الجانب الآخر مهرولا حتى اختفى بين الجموع.

كانت تلك آخر مرة أرى فيها قاسم، وانصرفت إلى منزلي برأس تملؤه أحداث هي من الكثرة ما جعلني أشعر بشيء يشبه الانتعاش.

بعد أسبوع، اتجهت صوبا إلى مستشفى مصطفى باشا بنية زيارة جميلة. ولكنني لم أعثر عليها، وحين سألت الطبيب الذي أدخلنا أنا وقاسم إلى جناح المرضى آخر مرة، علمت أنها توفيت قبل أسبوع جراء سكتة قلبية مفاجئة، ثبت لاحقا أنها كانت بسبب حقنة هواء حقنها بها أحدهم، اتضح أنه قاسم الذي بحسب الطبيب عثر عليه ميتا في شقته ببومرداس وبجواره جثة متعفنة لشخص قتل قبل أزيد من سنة، كان قد كفنها حديثا.

حينها تصورت نهاية أخرى لتلك القصة الغريبة التي جعلتني أنظر للحياة بطريقة أخرى. تصورت ذلك وقد انتابتني رغبة في كتابتها، وإذ ذاك، تملكني شعور آخر بجدوى حياتي



facebook.com/the.Boooks

وبضرورة أن تستمر فقط لأتمكن من كتابة قصتي مع قاسم، قصة اكتشافي لهذا الحب في خريف عمري الذي وقبل سنة فقط من الآن خلته مائلا نحو نهاية أكيدة أحببت أن أتوهم أنها الموت.

مازلت محتفظا بعلبة السجائر التي أهدانيها قاسم أول يوم.. ما زلت أحمل في محفظتي كتابه "الجدار" وأفتحه كل يوم على صفحة جديدة بيضاء، خالية من الكلمات، مكتظة بالذكريات التي نقشها قاسم في قلبي وإلى الأبد، لتكون وعدا صارما له في أن قصته لن تموت،.. في أن رغبته ستستمر ما استمر حلمه -إيمانه أقصد- في أن تتهدم كل الجدران في عقولنا وقلوبنا وأرواحنا، حتى يتسنى لنا إدراك حقيقة أن تصالحنا مع ذاتنا أسمى غاية في وجودنا..

ما زلت أجلس كل يوم في نفس المكان بحديقة خميستي أحمل علبة السجائر نفسها وذلك الكتاب بحثا عمن يملك وقتا وروحا يسمحان لي أن أنقش قصة قاسم فيهما من جديد. هكذا يمكنني الانصراف والعودة إلى منزلي لمرة أخيرة، لأستلقي على فراشي وأغمض عيني من دون أن أستفيق مذعورا من فكرة أن أحدهم يحدق بي.. من دون أن أستفيق أبدا.

**تمت في 2014**

**سمير قسيمي**



facebook.com/the.Boooks

# حب في خريف مائل

سمير قسيمي
* روائي من الجزائر.

أبرز أعماله:
يوم رائع للموت
هلابيل
الجرائم

وكأن شيئا لم يكن. ولا حتى قراري الأخير في الانفصال عنها صمد لحظة رأيتها من جديد.

استقبلتني بوجومي مبتسمة. وما كدت أخطو داخل شقتها حتى التصقت بي.

كان يكفيها ذلك لتجعلني أكسر جرة الزمن والمنطق لأتمادى فيها. تقمصتها وتقمصتني. وأنا على تخوم الانتهاء نظرت نحوها. وقد تراءت لي كل نساء العالم فيها. تراجع الزمن ثم تباطأ وهو يدني بآلاف السنين في هوة الفناء. وإذ ذاك، رأيتني آدم مستقرا بعرش الله بعد أن نفاه إلى الأرض.

نور الدين بوخالفة

حب في خريف مائل

صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilaf
editions.ekhtilaf@gmail.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com

توزيع كلمة: مؤسسة نيل وفرات
www.neelwafurat.com - www.nwf.com
نيل وفرات.كوم

facebook.com/the.Boooks